الكبـائـر

□ الكبائر □

يا كثير السيئات ، غدًا ترى عملك ، يا هاتك الحرمات ، إلى متى تديم زللك ؟.

كَمْ من وعيدٍ يخرقُ الآذانا كأنَّما يُعنى به سوانا
أصمّنا التفريط بل أعمانا

قال ابن الجوزي : لتعظمنَّ على أهل المخالفات الآفات ، ولتقطعنّ أفئدة المفرطين بالزفرات ، وليشتهرن الفاجر في الخلوات بالجَلَوات ، ولتَمُورنَّ السُّوق يوم السَّوْق إلى سُوق المحاسبات ، ولتسيلنَّ الدماء بعد الدموع على الوجنات ، وليتحسرنّ أهل المعاصي إذا لاحت درجات الجنّات ، وليناديَنَّ منادي الجزاء يخبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ .

لا تَحْقِرَنَّ من الآثام محتقرًا كلُّ امرىء سوف يُجزى بالذي اكتسبا
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا[١]

وجزاء السيئات والكبائر من جنسها يلوح ذلك جليًّا إذا ضربت الأمثلة بذكر الكبيرة أو المعصية وذكر جزائها .

○ ١ - الشرك بالله ○

أكبر الكبائر ..

قال ﷺ : « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور »[٢] .

---

(١) التبصرة (٢ / ٥٨) . (٢) رواه البخاري عن أنس .

وقال ﷺ : « الكبائر تسع ، أعظمهنَّ إشراكٌ بالله ... »[١] .

وقال ﷺ : « من أكبر الكبائر الشرك بالله ، واليمين الغموس »[٢] .

وقال : « لا تشرك بالله شيئًا ، وإن قُطِّعتَ وحُرِّقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا ، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذِّمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر »[٣] .

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥ - ٦] .

قال الشيخ سيد قطب :

قد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ؛ إمّا لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة ، وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرةً أو الشيطان .. وكلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أولا تستجيب له استجابة نافعة ، فالأحجار والأشجار لا تستجيب. والملائكة لا يستجيبون للمشركين. والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . كلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أو لا تستجيب له استجابة نافعة ، ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرّأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين ، حتى الشيطان ، كما جاء في سورة أخرى ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من**

---

(١) حسن : رواه أبو داود والنسائي عن عمير ، ورواه الطحاوي والحاكم والبيهقي في السنن ،وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن أنيس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٧٦ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢١٦ .

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم : ٢٢]. من أضل ممن يدعو من دون الله أحدًا في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد كائنًا من كان لا يستجيب لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب ، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد(١) .

قال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ [مريم : ٨١ - ٨٢] .

يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى رتبة الخالق ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفتْ وردّوا إلى الله مولاهم الحقِّ وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ [يونس : ٢٨ - ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ [النحل : ٨٦ - ٨٧] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تبرُّؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها ، كما قال تعالى : ﴿ **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ [العنكبوت: ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **ويوم يقول نادوا شركائيَ الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ [الكهف : ٥٢] .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٢٥٥ - ٣٢٥٦) .

ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين[(١)] .

ذلّوا واستسلموا يومئذ لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ﴿ **وألقوا إلى الله يومئذ السلم** ﴾ [النحل : ٨٧] .

يقول صاحب الظلال :

وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئًا في موقفهم العصيب ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ [النحل: ٨٨] فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقًا[(٢)] .

يقول الله تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**﴾ [المعارج: ٤٣ - ٤٤] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا ، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ، ويتجمعون حولها . فها هم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تتم سماتهم بقوله : ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة ، صورة ذليلة عانية ، لقد كانوا يخوضون ويلعبون ، فهم اليوم أذلاء مرهقون[(٣)] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥١٢) .

(٢) الظلال (٤ / ٢١٨٨) .

(٣) الظلال (٦ / ٣٧٠٣) .

يقول ابن كثير :

كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا يهرولون إلى النصب - الصنم - إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون أيهم يستلمه أولا ، وهذا مروي عن مجاهد ويحيى ابن أبي كثير وقتادة والضحاك، والربيع بن أنس. وقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ أي خاضعة ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة[١].

المآل والنهاية :

في البخاري ومسلم من حديث رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..» الحديث.

ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ [هود : ٩٨] .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ...» الحديث[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يَطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا يتَّبع كلُّ إنسان ما كان يعبد ؟ فيمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره[٣] ، ولصاحب النار[٤] ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين ...»[٥] الحديث .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٤) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية .

(٣) عباد الأصنام . (٤) المجوس .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨١.

٢ - قتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق

قال ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ملحد[١] في الحرم ، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطَّلِبٌ دم امرىء بغير حق ليهريق دمه »[٢] .

وقال ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء »[٣] .

وقال ﷺ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق »[٤] .

وقال ﷺ : « لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم[٥] الله عز وجل في النار »[٦] .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا »[٧].

وقال ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقًا[٨] صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا ، فإذا أصاب دمًا حرامًا بلّح[٩] »[١٠].

---

(١) الذي يرتكب فيه ما حرّمه الله .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن ابن مسعود .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٥٤ .

(٥) ألقاهم على وجوههم .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٢٣ .

(٧) رواه أحمد والبخاري عن ابن عمر .

(٨) طويل العنق ، الذي له سوابق في الخير .

(٩) بلّح : أي أعيا وانقطع .

(١٠) صحيح : رواه أبو داود عن أبي الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٥٧٠ .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دمًا ، فيقول : يا رب ! سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش »[١] .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول يوم القيامة متعلقًا بقاتله ، فيقول الله : فيم قتلت هذا ؟ فيقول : في ملك فلان »[٢] .

قال ابن العربي : ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق ، والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح[٣] .

قتل الحسين بن علي :

قال ﷺ : « حسين مني ، وأنا منه ، أحب الله من أحب حسينًا ، الحسن والحسين سِبْطان[٤] من الأسباط »[٥] .

وقال ﷺ : « إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا »[٦] .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل ، فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[٧] .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٧ .

(٢) صحيح: رواه النسائي عن جندب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٨.

(٣) فتح الباري (١٢ / ١٩٦) .

(٤) يعني أمة من الأمم في الخير.

(٥) حسن : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبخاري في الأدب المفرد عن يعلى بن مرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٤١ .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن ابن عمر ، والنسائي عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٦ .

(٧) صحيح : رواه ابن سعد عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣ .

وقال ﷺ : « أتاني ملك فسلم علي - نزل من السماء ، لم ينزل قبلها - فبشّرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[١] .

قتل سيد شباب أهل الجنة في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين ، بعث إليه عبيد الله بن زياد بعمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، ومعه شمر بن ذي الجوشن - قبحه الله - وكتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد : أن حل بينهم - أي الحسين وأصحابه وآل بيته - وبين الماء كما فُعِل بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان[٢]، واعرض على الحسين أن يبايع هو ومن معه لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، فإذا فعلوا ذلك رَأَيْنَا رَأْيَنَا ، وجعل أصحاب عمر بن سعد يمنعون أصحاب الحسين من الماء ، وعلى سرية منهم عمرو بن الحجاج ، فدعا عليهم بالعطش فمات هذا الرجل من شدة العطش . والجزاء من جنس العمل .

وطلب الحسين منهم أحد أمرين : إما أن يرجع من حيث جاء ، وإمّا أن يدعوه يذهب في الأرض العريضة حتى ينظر ما يصير أمر الناس إليه .

ونادى عمر بن سعد في الجيش : يا خيل الله اركبي وأبشري ، ولما وصلوا إلى حيث مضارب الحسين أرسلوا بعشرين فارسًا ، فقال العباس بن علي : ما لكم ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير ؛ إما أن تأتوا على حكمه ، وإما أن نقاتلكم . ولما رجع العباس إلى الحسين قال له : ارجع ، فارددهم هذه العشية ، لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه، فقد علم الله مني أني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، والاستغفار والدعاء ، وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله ، وخطب لأصحابه : من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، فامتنعوا . وقال له سعيد بن عبد الله الحنفي : والله لا نخليك حتى

---

(١) صحيح: رواه ابن عساكر عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩.

(٢) ومن الذي كان يدافع عن عثمان- رضي الله عنه- إلا الحسين والحسن على باب داره.

يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ ، والله لو علمت أني أقتل دونك ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك ، لأحببت ذلك ، وإنما هي قتلة واحدة .

وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضًا ، فقالوا : والله لا نفارقك ، وأنفسنا الفداء لك ، نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا . وقال له أخوه العباس : لا أرانا الله يوم فقدك ، ولا حاجة لنا في الحياة بعدك ، وقال الحسين : يا بني عقيل حسبكم بمسلم أخيكم – وكان رسول الحسين إلى أهل العراق بعد أن كاتبوه أن يقدم عليهم ، وله عندهم المنعة ، فقتلوا رسوله مسلمًا – اذهبوا ، فقد أذنت لكم . قالوا : فما تقول الناس : إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، لم نبرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، رغبة في الحياة الدنيا ، لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد مَوْرِدَك ، فقبح الله العيش بعدك .

وفي ليلة عاشوراء جعل الحسين يقول :

يا دهر أُفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحب أو طالبٍ قتيلِ ... والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليلِ ... وكل حي سالكُ السبيلِ

فأعادها مرتين أو ثلاثًا ، فقامت إليه زينب – رضي الله عنها – حتى انتهت إليه ، فقالت : واثكلاه !! ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت أمي فاطمة ، وعلى أبي ، وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي . فنظر إليها وقال : يا أخيّه ، لا يُذهبن حلمك الشيطان . فقالت : بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، أستقتل؟ وخرت مغشيًّا عليها، فقام إليها، فصبّ على وجهها الماء وقال : يا أخيّه، اتقي الله واصبري وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته ، ويميتهم بقهره وعزّته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وهو فرد وحده ، واعلمي أن

أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة حسنة ، ثم حرّج عليها ألا تفعل شيئًا من هذا بعد مهلكه .

وبات الحسين وأصحابه طول ليلهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، والحسين يقرأ : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ..** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٨- ١٧٩] .

في صبيحة عاشوراء اغتسل الحسين ، وتطيب بمسك كثير ، ثم ركب على فرسه ، وأخذ مصحفًا فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعًا يديه يدعو : اللهم ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة ، فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقلُّ فيه الحيلة ، ويخذُل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، فأنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة فيه إليك عمَّن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت وليّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل غاية .

ونادى الحسين : أيها الناس ، اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم . فأنصت الناس كلهم فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون** ﴾ [يونس:٧١]، ﴿**إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، ويقول : راجعوا أنفسكم وحاسبوها . هل يصلح لكم قتال مثلي وأنا ابن بنت نبيكم ، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري ، وعلي أبي ، وجعفر ذو الجناحين عمي ، وحمزة سيد الشهداء عم أبي ، وقال لي رسول الله ﷺ ولأخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » ، فإن صدقتموني بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدّت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على الكذب ، وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله

ﷺ عن ذلك ، جابر بن عبد الله ، وأبا سعيد ، وسهل بن سعد ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك يخبروكُمْ بذلك ، ويحكم ! أما تتقون الله ؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ فقال عند ذلك شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف ، إن كنت أدري ما يقول ؟ فقال له حبيب بن مطهر : والله يا شمر ، إنك لتعبد الله على سبعين حرفًا ، وأما نحن فوالله إنا لندري ما يقول ، وإنه قد طبع على قلبك ، ثم قال : يأيها الناس ، ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض ، فقالوا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك ؟ فقال : معاذ الله ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر :٢٧] ثم أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، ثم قال : أخبروني ، أتطلبوني بقتيل لكم قتلته ؟ أو مالٍ لكم أكلته ؟ أو بقصاصة على جراحة ؟ فأخذوا لا يكلمونه ، فنادى : يا شبيث ابن ربعي ، يا حجار بن أبجر ، يا قيس بن الأشعث ، يا زيد ابن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب ، فاقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة ؟ فقالوا له : لم نفعل . فقال : سبحان الله ! والله لقد فعلتم . ثم قال : يأيها الناس ، إذ قد كرهتموني ، فدعوني أنصرف عنكم ، فقال له قيس بن الأشعث : ألا تنزل على حكم بني عمك ، فإنهم لن يؤذوك ، ولا ترى منهم إلا ما تحب ؟ فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر لهم إقرار العبيد .

فأقبلوا يزحفون نحوه ، وقد تحيز إلى جيش الحسين طائفة قريب من ثلاثين فارسًا من جيش العراق ، منهم الحر بن يزيد أمير مقدمة جيش ابن زياد ، فاعتذر إلى الحسين ، ثم تقدم بين يدي أصحاب الحسين فخاطب : يأهل الكوفة لأمِّكم الهبل[1] ، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الوسيعة التي لا يمنع فيها الكلب والخنزير ، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي

(١) الهبل: الثكل .

يشرب منه الكلب والخنزير ، وقد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمدًا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمإ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عمَّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه .

وقال أيضًا : ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذي يشرب منه اليهود والنصارى ، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا .

وقال لهم زهير بن القين : إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فإن أنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، يذهب حيث يشاء، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال له : اسكت ، أسكت الله نامتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فقال له زهير : إياك أخاطب ؟ إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم . فقال له شمر : إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة . فقال له زهير : أبالموت تخوفني ؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم . ثم إن زهيرًا أقبل على الناس رافعا صوته يقول : عباد الله ، لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا ينال شفاعة محمد ﷺ قوم أهرقوا دماء ذريته ، وقتلوا من نصره وذبَّ عن حريمهم .

وشمر عمر بن سعد عن ساعده ، ورمى بسهم وقال : اشهدوا أني أول من رمى القوم ، وترامى الناس بالنبال ، وحمل رجل يقال له : عبد الله بن حوزة حتى وقف بين يدي الحسين ، فقال له : يا حسين ، أبشر بالنار ! فقال له الحسين : كلا ، ويحك إني أقدم على رب رحيم ، وشفيع مطاع ، بل أنت أولى بالنار . قالوا : فانصرف ، فوقصته فرسه فسقط ، وتعلقت قدمه بالركاب ، وكان قد سأل عنه فقال : أنا ابن حوزة . فرفع الحسين يده وقال : اللهم ، حزه إلى النار ، فغضب ابن حوزة ، وأراد أن يقحم عليه الفرس ، وبينه وبينه نهر ، فجالت به الفرس ، فانقطعت قدمه وساقه وفخذه ، وبقي جانبه الآخر متعلقا بالركاب ،

وشدّ عليه مسلم بن عوسجة فضربه فأطار رجله اليمنى ، وغارت به فرسه ، فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه في رأسه حتى مات .

وكان جزاؤه من جنس قوله وعمله .

وكثرت المبارزة بين الفريقين ، والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم ، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة ، وحمل شمر ابن ذي الجوشن بالميسرة ، وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعًا عظيمًا ، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجّالة ، فبعث إليهم نحوا من خمسمائة ، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها حتى بقي جميعهم رجالة ، واستمر القتل في أصحاب الحسين ، ومنهم حبيب بن مطهر ، حمل عليه رجل من بني تميم فطعنه فوقع ، ثم ذهب ليقوم فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف فوقع ، ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه ، وحمله إلى ابن زياد ، فرأى ابن حبيب رأس أبيه فعرفه ، فقال لحامله : أعطني رأس أبي حتى أدفنه ، ثم بكى ، قال : فمكث الغلام إلى أن بلغ أشده ثم لم تكن له همة إلا قتل قاتل أبيه ، قال : فلما كان زمن مصعب ابن عمير دخل الغلام عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه في فسطاطه ، فدخل عليه وهو قائل فضربه بسيفه حتى برد .

والجزاء من جنس العمل .

وقتل كل أصحاب الحسين وجاء رجل من بني بَدّاء ، يقال له : مالك ابن البشير ، فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه ، وكان على الحسين برنس فقطعه ، وجرح رأسه ، فامتلأ البرنس دمًا ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربت ، وحشرك الله مع الظالمين .

وكان أول قتيل قتل من أهل الحسين من بني أبي طالب علي الأكبر ابن الحسين بن علي ، قتلوا مع الحسين سبعة عشر رجلًا كلهم من أولاد فاطمة ، وعن الحسن البصري أنه قال : قتل مع الحسين ستة عشر رجلًا كلهم من أهل بيته ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه ، وقال غيره : قتل معه من ولده

وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلًا : فمن أولاد علي - رضي الله عنه -: جعفر، والحسين، والعباس، ومحمد، وعثمان، وأبو بكر، من أولاد الحسين: علي الأكبر، وعبد الله، ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة: عبد الله، والقاسم، وأبو بكر بنو الحسن بن علي بن أبي طالب . ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان : عون ، ومحمد، ومن أولاد عقيل: جعفر، وعبد الله وعبد الرحمن، ومسلم قتل قبل ذلك . فهؤلاء أربعة لصلبه، واثنان آخران هما: عبد الله بن مسلم بن عقيل ، ومحمد ابن أبي سعيد بن عقيل ، فكملوا ستة من ولد عقيل .

وقد اشتد عطش الحسين ، فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر ، بل مانعوه عنه، فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل يقال له: حصين بن تميم بسهم في حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ، ففار الدم، فتلقاه بيديه ، ثم رفعهما إلى السماء، وهما مملوءتان دمًا، ثم رمى به إلى السماء، وقال : اللهم، أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تذر على الأرض منهم أحدًا .. ودعا عليهم دعاءً بليغًا .

يقول ابن كثير :

فوالله إن مكث الرجل الرامي له إلا يسيرًا حتى صبّ الله عليه الظمأ ، فجعل لا يروى ويُسقى الماء مبردًا ، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعا ، ويسقى فلا يروى ، بل يقول : ويلكم ، اسقوني قتلني الظمأ . قال : فوالله ، ما لبث إلا يسيرًا حتى انقد[1] بطنه انقداد البعير[2] .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن محمد الكوفي قال : كان رجل من بني أبان بن دارم يقال له : زرعة ، شهد قتل الحسين ، فرمى الحسين بسهم ، فأصاب حنكه ، فجعل يتلقى الدم ، ثم يقول : هكذا إلى السماء فيرمي به ، وذلك أن الحسين دعا بماء ليشرب ، فلما رماه حال بينه وبين الماء ، فقال : اللهم ظَمِّئْه !

---

(١) انقد : انشدخ .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٨٩) .

اللهم ظمئه ! قال : فحدثني من شهده وهو يموت ، وهو يصيح من الحرِّ في بطنه، والبرد في ظهره، وبين يديه المراوح والثلج، وخلفه الكانون ،وهو يقول : اسقوني أهلكني العطش ، فيؤتى بعُسٍّ عظيم فيه السَّويق أو الماء أو اللبن ، لو شربه خمسة لكفاهم ، قال : فيشربه ، ثم يعود ، فيقول : اسقوني ، أهلكني العطش . قال : فانقدّ بطنه كانقداد البعير[1] .

والجزاء من جنس العمل .

جعل شمرَ بن ذي الجوشن يحرضهم على قتل الحسين ويقول : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . وجعل الحسين يشد على الرجال وهو يقول : أعلى قتلي تحابون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدًا من عباد الله أسخط عليكم بقتله مني ، وايم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

وجعل – رضي الله عنه – يحمل من على يمينه حتى انذعروا عنه ، وهو كالليث الهصور قد قتل أولاده ، بل منهم من ذبح بين يديه ، وقتل أصحابه ، وما رأى الناس أربط منه جأشًا ، ولا أمضى جنانًا ، فحملت الرجال – بل والله الصعاليك – من كل جانب على الحسين ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو ، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ، ثم نزل فذبحه ، وحزّ رأسه ، ثم دفع رأسه إلى خولي بن يزيد وجاء سنان بن أنس إلى فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته :

---

(١) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٩٢ ، تحقيق وتعليق : مجدي السيد إبراهيم مكتبة القرآن .

أوقر ركابي فضة وذهبا أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمًّا وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فضربه عمر بن سعد بالسوط .

ثم حملوا رأس الحسين – رضي الله عنه – إلى عبيد الله بن زياد ، فوضع في طست فجعل ينكت بقضيب في أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسنا . وفي رواية : جعل ينكت فيه بقضيب بين ثناياه ساعة . فقال له زيد بن أرقم : ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يقبلهما .

وأمر ابن زياد ، فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين ، الذي أراد أن يسلبهم الملك ، ويفرّق الكلمة عليهم ، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي فقال : ويحك يابن زياد !! تقتلون أولاد النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب. ثم أُمر برأس الحسين ، فنصب بالكوفة ، وطيف به في أزقتها ، ثم سيره مع زحر بن قيس ومعه أرؤس أصحابه إلى يزيد بن معاوية .

لما انتهت المعركة مروا بنساء أهل البيت على القتلى ، ورأوا الحسين وأصحابه مطرحين،هنالك بكته النساء ، وصرخن ، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها ، فقالت وهي تبكي: يا محمداه! يا محمداه! صلى عليك الله! وملك السماء! هذا حسين بالعراه! مزمل بالدماه! مقطع الأعضاء! يا محمداه! وبناتك سبايا! وذريتك مقتلة! تسفي عليها الصبا ! فأبكت والله كل عدو وصديق .

لما أُتي بالرأس بين يدي يزيد دمعت عينا يزيد ، وقال لعبد الله بن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ، كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، ورحم الله الحسين ، ثم قال : لما وضع الرأس بين يديه : أما والله لو أني صاحبك ما قتلتك ، ثم جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره ، ثم أنشد قول الحسين

ابن الحمام المري الشاعر :

يفلقن هامًا من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهمْ كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي : ارفع قضيبك ، أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذًا ، لقد رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، ثم قال : ألا أن هذا سيجيء يوم القيامة وشفيعه محمد ، وتجيء وشفيعك ابن زياد ، ثم قام فولى .

إخوتاه :

أيرجو معشر قتلوا حسينًا ... شفاعة جدّه يوم الحساب

ويح قاتل الحسين ! كيف حاله مع أبويه وجده ؟!!

لابد أن ترد القيامة فاطِمٌ ... وقميصها بدم الحسين ملطّخُ

ويلٌ لِمَنْ شفعاؤه خصماؤه ... والصُّور في يوم القيامة يُنفخُ

إخواني ، بالله عليكم من قبح على يوسف بأي وجه يلقى يعقوب

ماذا تقولون إن قال النبي لكمْ ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدمِ

ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكمْ ... أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمِ

لما أُسر العباس يوم بدر سمع رسول الله ﷺ أنينه فما نام ، فكيف لو سمع أنين الحسين ؟

جاءوا برأسك يابن بنت محمدٍ ... متزملا بدمائه تزميلا[1]

وكأنما بك يابن بنت محمدٍ ... قتلوا جهارًا عامدينَ رسولا

قتلوك عطشانًا ولم يتدبروا ... في قتلك القرآن والتنزيلا

ويكبّرون بأنْ قُتلتَ وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

لما أسلم وحْشيّ قال له الرسول ﷺ : غيِّب وجهك عني . هذا والله والمسلم لا يؤاخذ بما كان في الكفر ، فكيف يقدر الرسول ﷺ أنْ يُبصر من

---

(١) تزمّل : تلفف .

قتل الحسين ؟

لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحِد ، ومنعوه أن يرد الماء فيمنْ ورَد ، وأن يرحل عنهم إلى أي بلد ، وسبوا أهله وقتلوا الولد ، وما هذا حَدُّ دفع عن الولاية،هذا سوء معتقد .

نبع الماء من بين أصابع جده فما سقوه منه قطرة !

كان الرسول ﷺ من حب الحسين يقبل شفتيه ، ويحمله كثيرًا على عاتقيه ، ولما مشى طفلًا بين يدي المنبر نزل إليه ، فلو رآه مُلْقى على أحد جانبيه ، والسيوف تأخذه والأعداء حواليه ، والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه ، ودماؤه تجري بعد دموع عينيه ، لضجَّ الرسول ﷺ مستغيثًا من ذلك ولعزّ عليه .

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن زيد بن جدعان قال : استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع ، وقال : قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه : لم يا بن عباس ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال:« أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي ؟ قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله » . فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه ، وتلك الساعة ، فما لبثوا إلا أربعة وعشرين يومًا حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في ذلك اليوم في تلك الساعة[1] .

وروى الترمذي عن سلمى قالت : دخلت على أم سلمة – وهي تبكي – فقلت : ما يبكيك ؟ فقالت : رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه وعلى لحيته تراب ، فقلت : ما لك يا رسول الله قال : « شهدت قتل الحسين آنفًا » .

كربلاء زِلت كربًا وبَلا ... ما لقي عندكِ أهل المصطفى
كم على تُرْبِكَ لمّا صُرِعوا ... من دم سالَ ومن دَمْعٍ جرَى
يا رسول الله لو عايَنْتَهمْ ... وهمُ ما بين قَتْلٍ وسِبَا

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/١٧٤-٢٠٣) ، التبصرة (٢/١٧-١٨) .

من رَمِيض[1] يُمْنَع الظِّلّ ومِنْ عاطشٍ يُسقى أنابيب القَنا
لرأت عيناك فيهم مَنْظرًا للحَشا شجوًا وللعينِ قَذى
ليس هذا لرسول الله يا أمة الطغيان والمَيْنِ جَزَا
غارس لم يَأْلُ في الغَرْس لهمْ فأذاقوا أهلَه مُرَّ الجَنَى
جَزروا جَزْرَ الأضاحى نَسْله ثم ساقوا أهلَه سَوْق الإما
هاتفاتٍ يا رسول الله في بُهر[2] السعي وعثْرات الخطى
قتلوه بعد عِلْمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحاب الكِسَا[3]
يا جبالَ المجد عزًّا وعُلَا وبدورَ الأرض نورًا وسنا
جعل الله الذي نالكمُ سبب الوجْد طويلًا والبُكا
لا أرى حُزنكمُ يُنْسى ولَا رُزْأكم يُسْلَى ولو طال المدى[4]

جزاء قتلة الحسين في الدنيا :

يقول ابن كثير :

أمَّا ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح ، فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا ، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض ، وأكثرهم أصابهم الجنون[5] .

وقال أيضًا :

لاشك أن قتل قتلته كان متحتمًا ، والمبادرة إليه كان مغنمًا ، ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافرًا ، وقد

---

(١) الرميض : من أصابته الرمضاء ، وهي شدة الحر بالهاجرة .
(٢) البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٣) أي الذين غطاهم رسول الله ﷺ ببردته وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » . وهم الرسول ﷺ ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين .
(٤) التبصرة (٢ / ١٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٢٠٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . وقد قال تعالى في كتابه الذي هو أفضل ما يكتبه الكاتبون : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وقال بعض الشعراء :

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم[١]

فهذا شمر بن ذي الجوشن - قبحه الله - هذا الأبرص الذي أغرى الناس بقتل الحسين ، يقتله أبو عمرة أمير حرس المختار ومن معه من الجنود ، شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله .

قال ابن كثير :

خطب المختار أصحابه فقال : ما ذنبنا نترك أقواما قتلوا حسينا يمشون في الدنيا أحياء آمنين ، بئس ناصرو آل محمد ، إني إذًا كذّاب كما سميتموني أنتم ، فإني بالله أستعين عليهم ، فالحمد لله الذي جعلني سيفًا أضربهم ، ورمحًا أطعنهم ، وطالب وترهم[٢] ، وقائما بحقهم ، وإنه كان حقًّا على الله أن يقتل من قتلهم ، وأن يذلَّ من جهل حقهم ، فسموهم ، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم . فإنه لا يسيغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم ، وأنفي مَنْ في المصر منهم ، ثم جعل يتتبع من في الكوفة - وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات ما يناسب ما فعلوا - ومنهم مَنْ حرّقه بالنار ، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات ، ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت ، فأتوه بمالك ابن بشر فقال له المختار : أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه ؟ فقال : خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا ، فقال : اقطعوه ، يديه ورجليه ، ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات ، وقتل عبد الله بن أسيد الجهني وغيره شر قتلة[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٧) .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) .

والجزاء من جنس العمل .

وأما خولي بن يزيد الأصبحي الذي احتز رأس الحسين[١] فقد بعث إليه المختار أبا عمرة صاحب حرسه ، فكبس بيته ، فخرجت إليهم امرأته ، فسألوها عنه ، فقالت : لا أدري أين هو ، وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختف فيه – وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها وكانت تلومه على ذلك – فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة[٢]، فحملوه إلى المختار فأمر بقتله قريبا من داره ، وأن يحرق بعد ذلك .

وقتل حكيم بن فضيل السبنسي الذي سلب العباس بن علي بن أبي طالب .

وقتل يزيد بن ورقاء ، وكان قد قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل .

وقتل فيما بعد سنان بن أنس . والجزاء من جنس العمل .

وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الذين قتلوا الحسين .

عمر هذا الذي دعا عليه سعد بن أبي وقاص والده وكان مستجاب الدعوة : اللهم اقتله وأسلْ دمه ، لما أسال دم غلام لسعد .

عمر هذا الذي استجار بعبد الله بن جعد بن هبيرة وكان صديقًا للمختار ، فأتى المختار فأخذ منه لعمر بن سعد أمانًا مضمونة أنه آمن على نفسه وأهله وماله ما أطاع ولزم رحله ومصِره ، ما لم يحدث حدثا ، وأراد المختار ما لم يأت الخلاء فيبول أو يغوط .

وجعل عمر يتنقل من محلة إلى محلة ، ولما بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع فقال : كلا والله ، إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه إن يطر لأدركه دم الحسين فأخذ برجله . ثم أرسل إليه أبا عمرة فأراد الفرار منه ، فعثر في جبته ،

---

(١) قال هذا ابن كثير في البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) ، وورد عنده أيضًا أن فاعل ذلك هو سنان بن أنس .

(٢) وعاء من قصب يجعل فيه التمر .

فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله ، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار ، فقال المختار لابنه حفص - وكان جالسًا عند المختار -- فقال : أتعرف هذا الرأس ؟ فاسترجع ، وقال : نعم ، ولا خير في العيش بعده . قال : صدقت ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ووضع رأسه مع رأس أبيه . ثم قال المختار : هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين الأكبر ، ولا سواء[١] .

والجزاء من جنس العمل .

أما عبيد الله بن زياد رأس الفسق ، الذي كتب كتابًا لعمر بن سعد في قتل الحسين ؛ والذي قال لعمر بن سعد بعد قتل الحسين : أين الكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين ؟ فقال له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب . فقال له ابن زياد : لتجيئن به . قال : ضاع . قال : والله لتجيئن به . قال : ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبي وقاص لكنت قد أديت حقه . فقال عثمان ابن زياد أخو عبيد الله : صدق عمر والله . ولوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة[٢] إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل[٣] .

وقد قتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين .

ظفر به ابن الأشتر ، فقتله شر قِتلة . على شاطىء نهر الخاز ، قريبًا من الموصل بخمس مراحل ، بعد هزيمة جيشه أمام جيش ابن الأشتر ، ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير وشراحبيل بن ذي الكلاع ، وجماعة من رؤساء أصحابهم، فسرّ بذلك المختار .

لما جيء برأس ابن مرجانة وأصحابه طرحت بين يدي المختار فجاءت حية

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٦) .

(٢) خزامة : حلقة توضع في أنف البعير .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢١٠) .

رقيقة ، ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة وخرجت من منخره ، ودخلت في منخره وخرجت من فمه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه مِنْ بين الرءوس .

وروى الترمذي عن عمارة بن عمير قال : لما جيء برأس عبيد الله وأصحابه فنصبت في المسجد في الرحبة ، فانتهيت إليها وهم يقولون : قد جاءت قد جاءت ، فإذا حية قد جاءت تخلل الرءوس حتى دخلت في منخري عبيد الله ابن زياد ، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ، ثم قالوا : قد جاءت قد جاءت ، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا[١] .

مثلما فعل بالقضيب في فم ومنخري الحسين ، والجزاء من جنس العمل .

قال ابن كثير :

قال عبد الملك بن عمير : دخلت على عبيد الله بن زياد ، وإذا رأس الحسين بن علي بين يديه على ترس، فوالله ما لبثت قليلًا حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس ، ووالله ما لبثت إلا قليلًا حتى دخلت على مصعب وإذا رأس المختار بين يدي مصعب على ترس[٢] .

وكان جزاء عبيد الله بن زياد في الدنيا من جنس عمله ، والمرد إلى الله ، فيعاقبه بقتل ابن بنت النبي .

عن أبي الطفيل قال : عزلنا سبعة أرؤس ، وغطينا منها رأس عبيد الله ابن زياد ، فجئت فكشفتها فإذا حية في رأس عبيد الله تأكل[٣] .

سجع

على قوله تعالى : ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٨٩/٨) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٤٩/٣) . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حسن صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٤٨/٣-٥٤٩).

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا ، ودمغ من عاداه فعاد بعد العزّ مُهانا ، ما ضرّه حين الشهادة مَنْ أوسعه خذلانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

هلك أهل الزَّيْغ والعناد ، وكأنهم ما ملكوا يومًا البلاد ، وعاد عليهم اللعن كما عاد على عاد ، أين يزيد ، أين ابن زياد ؟ كأنهما ما كانا لا كانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تمتعوا أيامًا يسيرة ، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة ، وبقيت سيرة الحسين أحسن سيرة ، ومَنْ عزّت عاقبته والسيرة ، فكأنْ لم يلقَ هوانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

مُزِّقوا والله كل ممزَّق ، وتفرقوا بالشتات أي متفرَّق ، وظنوا أنهم رفَوْا ما جَنَوْا فتخرّق ، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تعززوا على مثل الحسين وطالوا ، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا ، وكيل لهم من الذم أضعاف ما كالوا ، وعجّل قلعهم من السلطة فزالوا ، سلطانًا سلطانًا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا** ﴾ .

ويلهم لو دبروا أمرهم ، لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أيامًا ثم بقي الخزي دهرهم ، اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم ، أهوانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾[1] .

أبو مسلم الخراساني :

وانظر إلى أبي مسلم الخراساني الذي قتل من عباد الله ماقتل ، وكان فاتكًا سفاكًا .

ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه ، وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن مَنْ قتل بغير ذلك .

---

(١) التبصرة (٢ / ١٨ - ١٩) .

وسئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد ، ولكن كان الحجاج شرًّا منه ، كتب إليه المنصور : احذر البغي أبا مسلم ، فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتي بعدك .

وكتب هو إلى المنصور : إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهديّ وكان ضالًّا ، فأمرني أن أجرّد السيف ، وأقتل بالظنة ، وأقدم بالشبهة ، وأرفع الرحمة ، ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم ، واستنقذني بالتوبة ، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركًا ، ولأغواهما راكبًا ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه في أشياء صدرت منه ، فيعتذر عنها جيدًا ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمري . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عُصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ، فتبادروا إليه ليقتلوه ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، استبقني لأعدائك . فقال : وأي عدو لي أعدى منك ؟! ثم زجرهم المنصور ، فقطعوه قطعا ، ثم أُلقي في دجلة .

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه ، فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمناك عليك حكمك على نفسك لنا .

ويقال : إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله

قال ابن جرير : وقال المنصور عند ذلك :

زعمتَ أن الدَّين لا يُقتضى فاستوفِ بالكيلِ أبا مجرمِ
سُقيت كأسًا كنتَ تسقى بها أمرَّ في الحلق من العلقَمِ

وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مسلم ما غيرّ الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبدُ
أبا مسلم خوّفتني القتل فانتحن عليك بما خوفتني الأسد الوردُ

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : يأيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر ، وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا .

وقال: فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا[1]. والجزاء من جنس العمل.

يوسف بن عمر :

قال الإمام الذهبي :

قال صالح بن طريف : لما قدم يوسف بن عمر العراق ، بكيت ، وقلت : هذا الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله .

قال الذهبي : يعني لما ولي إمرة اليمن ، ثم نقله الخليفة هشام إلى إمرة العراق ، وكان جبارًا عنيدًا مهيبًا ، ثم إنه عزل عن العراق ، عند مقتل الوليد الفاسق ، ثم ضربت عنقه ولله الحمد[2] والجزاء من جنس العمل .

المعتز ، والمعتمد على الله :

قال الذهبي في ترجمة المؤيد بالله :

---

(١) البداية والنهاية : (٧٠ - ٧٣) ، سير أعلام النبلاء (٦ / ٧٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٥٦) .

عقد له أخوه بولاية عهد الخلافة من بعده ، ودُعي له في الأمصار ، ثم بلغ المعتز عنه أمر فضربه ، وخلعه من العهد ، وحبسه يومًا ، ثم أُخرج ميتًا . فقيل : أُجلس في الثلج حتى مات بردًا ، وبعث به إلى أمه ، فبعثت تقول لقبيحة أم المعتز : عن قريب ترين المعتز ابنك هكذا .

قال الذهبي : كذا وقع ، وما أمهله الله[1] .

وقال الذهبي في ترجمة المعتمد على الله : وأما الصولي . فقال : بل عذبوه في حمام ، كما هو فعل بالمعتز ، حتى أقر بالأموال ثم خنق[2] .

قتل المعتز بعد أن أهانه الأتراك ، ولطموا وجهه ، وساموه سوء العذاب بأنواع المثلات ، وكانت أمه تدعو على صالح بن وصيف قاتله وتقول : اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدّد شملي ، وأخذ مالي ، وغرّبني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني - وكان قد تزوج بها - ثم يكون جزاء صالح بن وصيف من جنس عمله ، فقتل بعد سنة ٢٥٦ بعد طول اختفاء ، ورفع رأسه على رمح ، ونودي عليه في أرجاء البلد : هذا جزاء من قتل مولاه .

الحجاج بن يوسف الثقفي المبير :

قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثتِ الأمم فجاءت كل أمه بخبيثها ، وجئنا بالحجاج ؛ لغلبناهم[3] .

قالت له أسماء لما دخل عليها بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير ، وقال لها : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت، كان بارًّا بوالديه، صوّاما قوّاما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذّاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني المختار -

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٣٣) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٥٤١) .
(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٤٣) .

وأما المبير فأنت .

أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل : إنه لبث في سجنه ثِمانون ألفًا ، منهم ثلاثون ألف امرأة ، وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا .

وعن هشام بن حسّان : أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا .

كان عثمانيًّا أمويًّا ، يميل إليهم ميلًا عظيمًا ، ويرى أن خلافهم كفر ، ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم .

خطب الحجاج يومًا فقال : أيها الناس ، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ! ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبت وضل سعيك . فقال للحرس : خذوه . فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرّأك علي ؟ فقال : ويحك يا حجّاج ، أنت تجترىء على الله ولا أجترىء أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترىء عليك ، وأنت تجترىء على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله .

وقتَل الحجاج سعيد بن جبير .

قال الإمام أحمد : قُتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج – أو قال مفتقر – إلى علمه .

قال ابن كثير :

قال له الحجاج : والله لأقتلنك . قال : إني إذًا لسعيد كما سمتني أمي . قال : فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام، يأخذ بمجامع ثوبه . ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير[1] .

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ١٠٣) .

قال الذهبي :

قال سليمان التيمي : كان الحجاج إذا أُتي بالرجل - يعني ممّن قام عليه - قال له : أكفرت بخروجك عليّ ؟ فإن قال نعم : خلّى سبيله . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلة أقتلك . قال : اختر أنت فإن القصاص أمامك[١] .

قال ابن كثير :

أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل .

قال الحجاج: إن الله خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها، وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم ، فردهم إليها ، فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم في جوفها ، وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور .

فكيف بك يا حجاج وقد قتلت ابن حواري الرسول ﷺ وحفيد الصديق ، وقتلت سعيد بن جبير ؟!!

لما مات الحجاج سجد الحسن شكرًا لله . وقال : اللهمَّ ، أَمتَّه ، فأذهب عنا سنته . ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح .

أنشأت جارية له عند موته تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا   واليوم يأمننا من كان يخشانا

بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد .. فإني قد بعثت بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العمل ، ففرّقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا ، وعليك السلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٣٣٨) .

قال ابن كثير : إنما نفاهم .

رأى الحسن البصري الحجاج في منامه : فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج . قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته .

وكذا رواها الأصمعي عن أبيه .

والجزاء من جنس العمل .

قال الذهبي في ترجمته :

كان ظلومًا، جبارًا، ناصبيًّا، خبيثًا، سفاكًا للدماء، قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير ، وحصاره لابن الزبير في الكعبة ، ورميه إياها بالمنجنيق ، وإذلاله لأهل الحرمين ، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله . فنسبُّه ولا نحبُّه ، بل نبغضه في الله ، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان[1] .

السُّمَيرمي :

الوزير الكبير، وزير السلطان محمود السلجوقي، شديد الوطأة، ذو عسف وظلم ، وسوء سيرة .

قتله بل ذبحه باطني .

قال الذهبي :

وقيل : إن الذي قتله عبد كان للمؤيد الطغرائي وزير السلطان مسعود ، فإن السميرمي قتل أستاذه[2] ظلمًا ، ونبزه بأنه فاسد الاعتقاد ، وكل قاتل مقتول[3] .

الخبيث صاحب الزنج :

المدعي أنه طالبي وهو كاذب . دخل جيشه البصرة سنة ٢٥٧هـ ، فقتل

---

(١) انظر ترجمة الحجاج ، في البداية والنهاية (١٢٣/٩ - ١٤٦) ، سير أعلام النبلاء (٣٤٣/٤) .

(٢) أي ، أستاذ هذا العبد ، وهو الطغرائي .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٤٣٣) .

من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصرة ودورًا كثيرة وانتهبوها ، ثم نادى فيهم إبرهيم بن المهلبي أحد أصحاب الزنجي : من أراد الأمان فليحضر ، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة ، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم ، وأمر بقتلهم ، فلم يفلت منهم إلا الشاذّ . كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة ، ثم يقول بعضهم لبعض : كيلوا - وهي الإشارة بينهم إلى القتل - فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم ، وضجيجهم وهم يقتلون ؛ أي صراخ الزنـج وضحكهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهكذا كانوا يفعلون في كل محال بالبصرة في عدة أيام نحسات ، وهرب الناس منهم كل مهرب ، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل ، فكانت النار تحرق ما وجدت من شيء من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك ، وأحرقوا المسجد الجامع ، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء .

روى ابن جرير عمن سمعه يقول : دعوت الله على أهل البصرة ، فخوطبت ، فقيل : إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة ، فأوّلت الرغيف القمر وانكساره انكسافه ، وقد كان هذا شائعًا في أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به .

قال ابن كثير :

ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه ، كما كان يأتي الشيطان مسيلمة وغيره . قال : ولمّا وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع ، قال هذا الخبيث لمن معه : إني صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة ، فرفعت لي البصرة بين السماء والأرض ، ورأيت أهلها يقتلون ، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابي ، وإني لمنصور على الناس ، والملائكة تقاتل معي ، وتثبت جيوشي ، ويؤيدونني في حروبي .

وبعد أن عاث في الأرض فسادًا وقتل من قتل، كتب إليه ولي عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد . ودعاه إلى الحق ، فلم يجبه استهانة به ، فركب إليه من فوره في جيوشٍ عظيمة ، قريب من خمسين ألف مقاتل ، قاصدًا إلى المختارة

مدينة صاحب الزنج ، وجرت بينهم حروب عظيمة ، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج ، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله ، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين ، وأعظم الرزايا عند الزنَج، وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال ، وقتل من كان بها من الرجال ، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال ، ولما فرّ الخبيث وتحصنّ ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلًا ، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج ، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته ، منهم سليمان بن جامع ، فاستبشر الناس بأسره ، وكبرّوا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح ، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث ، فاستحر فيهم القتل ، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج ، وأتي برأسه مع غلام لؤلؤة الطولوني ، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خر ساجدًا لله ، وسجد ابن الموفق وقواده ، ومواليه وغلمانه شكرا لله ، وأكثروا حمد الله والثناء عليه ، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث على قناة ، ونصبه بين يديه ، فتأمله الناس ، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله. وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك في المغارب والمشارق، وجيء بولده بانكلاني وأبان بن علي المهلبي مسعر حربهم مأسورين ، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير ، فتم السرور .

وسار الموفق إلى بغداد ، وقدّم ولده أبا العباس بين يديه ، ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس ، وكان يومًا مشهودًا ، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحه الله ، وللشعراء فيما كان من أمر الموفق ، وأمر المخذول أشعارٌ كثيرة منها :

أقول وقد جاء البشير بوقعة ... أعزَّت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناسِ للناس بعدما ... أُبيح حماهمْ خيرَ ما كان جازيا
تفرّد إذْ لم ينصر الله ناصرٌ ... بتجديد دينٍ كان أصبح باليا
وتشديد ملك قد وهى بعد عزّه ... وإدراك ثاراتٍ تُبير الأعاديا

ورِدّ عمارات أزيلتْ وأُخربتْ ... ليرجع فيء قد تخُرِّم وافيا
ويرجع أمصار أبيحت وأُحرقت ... مرارًا فقد أمست قواءً عوافيا
ويُشفي صدور المؤمنين بوقعة ... يقرُّ بها منا العيون البواكيا
ويُتلى كتاب الله في كل مسجدٍ ... ويُلقى دعاء الطالبيين خاسيا

وقال آخر :

أين نجوم الكاذب المارقِ ... ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذقِ
صبحه بالنحس سعدٌ بـدا ... لسيّدٍ فـي قولـه صادقِ
وذاق من كأس الردى شربةً ... كريهة الطعم على الذائـقِ

وقال آخر :

يهوي إلى حرّ الجحيم وقعرها ... بسلاسل قد أوهنته ثقـالِ
هذا بما كسبت يداهُ وما جنى ... وبما أتى من سيىء الأعمالِ[1]

والجزاء من جنس العمل .

بابك الخرمي :

هذا الشقي الثنوي الذي كان على دين ماني ومَزْدَك ، وكان يقول بتناسخ الأرواح ، ويستحل البنت وأمها .

قيل : كان ولد زنا ، وكانت أمه عوراء ، يقال لها : رومية العلجة ، وكان علي بن مزدكان يدعي أنه زنى بها ، وبابك منه .

وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطي، فحملت منه ببابك، فرُبِّيَ أجيرًا في القرية، وكان هناك قوم من الخُرَّمية لهم كبيران: جاوندان وعمران ، فتفرّس جاوندان النجابة في بابك ، فاكتراه من أمه ، فهويته زوجة جاوندان ، وأطلعته على الأسرار ، ثم قتل زوجها في محاربة لابن عمه ، فزعمت

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٧٥-٢٨٨) ؛ البداية والنهاية (١١/٤٥-٤٨) .

أن زوجها استخلف بابك ، فصدقها الجميع ، فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه في الليل ، فأصبح عدة قتلى ، وانضاف إليهم كل شرير وقاطع طريق ، وصار أمر بابك إلى ما صار ، ولقد أخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم الملة المجوسية . وكان هذا الشقي يدعو إلى الإباحية وظهر في أيامه المازيار بالمجوسية في طبرستان وعظم البلاء ، ولقد دخل مازيار في الإسلام وتسمى محمدًا ، وكان صاحب جبال طبرستان ، ولقد أعلن العصيان بطبرستان ، وطلع المعتصم .

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ولقد جهز خلفاء بني العباس جيوشًا كثيرة إليه مع إفشين الحاجب ، ومحمد بن يوسف الثغري ، وأبي دلف العجلي وأقرانهم .

وفي سنة ٢٢٢هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين ، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم ، وأخذت البَذّ مدينة بابك اللعين ، واختفى في غيضة ، وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخُرَّمية ، وبعد أن هرب أوقعه الله في يد الإفشين ، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامرا ، ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره ، ولفساد الطريق بالثلج وغيره ، جعل من سامرّا إلى عقبة حلوان خيلًا مضمرة ، على رأس كل فرسخ فرسًا معه مُجرٍ مرتب ؛ فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد ، يدًا بيد ؛ وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج ، فكان يركض فيها يوما أو يومين ، ثم تبدّل ويصير غيرها ، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابّة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر ؛ فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق ، فيأخذ الخريطة منه ، فجاء الخبر في أربعة أيام وذلك مسيرة شهر . ودخل بابك إلى سامرا ، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين، فدخل إليه متنكرًا، ونظر إليه وتأمله ، وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال على أي شيء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟، فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجعل

في قباء ديباجٍ وقلنسوة سمّور مدورة ، وهو وحده ؛ وفي هذا قال الشاعر :

قد خُضب الفيل كعاداته يَحملُ شيطان خـراسانِ

والفيل لا تخضبُ أعضاؤه إلا لذي شأن من الشانِ

واصطف الناس سماطين ؛ وأُدخل بابك إلى أمير المؤمنين ، فأحضر جزارًا يقطع يديه ورجليه ؛ ثم أمر أن يحضر سيّافه ، فخرج الحاجب من باب العامة ؛ وهو ينادي : نودنود – وهو اسم سياف بابك – فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر ، فدخل دار العامة ، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه ، فقطعهما فسقط ، وأمر أمير المؤمنين بذبحه ، وشق بطنه ، ووجه برأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامرّا عند العقبة بموضع خشبةٍ مشهور ، وكان الإباحي بابك قد شرب الخمر ليلة قتله ، وكذا قتل أخوه ، وكان جزاء هذا اللعين الإباحي من جنس عمله .

يقول ابن جرير الطبري : كان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان[1] .

وقال الشعراء وأحسنوا في وصف ما منّ الله على المسلمين من الخير ، وتخريب البذّ بلاد بابك التي أضحت قيعانًا خرابًا ، قال أبو تمام :

قد كان عذُرة سؤددٍ فافتضّها بالسيف فحل الشرق الأفشينُ

فأعادها تعوي الثعالبُ وسْطها ولقد تُرى بالأمس وهي عرينُ

هطلت عليها من جماجم أهلها دِيَمٌ إمارتها طُلًى وشئـونُ

كان من المهْجات قبل مفازة[2] عُسْرًا فأضحت منه وهي معينُ

قال الذهبي : قيل إنه أباد من الأمة خلائق ، وبخط الإمام ابن الصلاح :

---

(١) تاريخ الطبري (٩ / ٢٢٠ – ٢٣٥) .

(٢) الفوز والفلاح .

أن قتلى بابك بلغوا ألف ألفٍ وخمسمائة ألفٍ ، وأُحصي قتلى أبي مسلم الخراساني ، فبلغوا ألفي ألف[١] .

كان للبابكية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سُرُجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عَزّ بزّ .

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين ، ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه من بنات ملوك الفرس ، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء ، وقد بَنَوْا في جبلهم مساجد للمسلمين يُؤذن فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون، ولا يصومون في شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة .

ومن رحمة الله بالمؤمنين في السنوات التي تلتها أن الفرقة الإباحية الأخرى من الخرمدينية[٢] نالها الذل والهوان في السنوات القليلة بعد قتل بابك ، فإنه لما أعلن مازيار خلع المعتصم والعصيان بطبرستان ، كتب المعتصم إلى عبد الله ابن طاهر بن الحسين يأمره بحربه ، فسيرّ إليه عمه الحسن بن الحسين ، فكانت له معه حروب كثيرة ، وما زال حتى أسره وحمله إلى سامرا ، فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر ، وصلب إلى جانب بابك ، وفيه يقول أبو تمام :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها ... أن صار بابكُ جار مازيّار
ثانيه في كبد السماء ، ولم يكن ... لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار[٣]

وذهب الإباحي الظالم الغاشم الجبار .

ومن العجب أن مازيار هذا قال : إن الإفشين جعل أخاه يكتب إلى مازيار

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٩٧) .

(٢) في الفرق بين الفرق : أن الخرمدينية ظهروا في دولة الإسلام ، وهم فريقان بابكية ، ومازيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة، انظر : الفرق بين الفرق ص٢٦٦ .

(٣) الفرق بين الفرق ص٢٦٦ – ٢٦٩ .

بنصر الدين الأبيض دين المجوسية ، وجيء به وقد ضرب إمام مسجد ومؤذن ألف سوط ؛ لأنهما وثبا على بيت أصنام بأشروسنة ، فرميا الأصنام وعملاه مسجدًا ، وقال موبذ ملك السند عن الإفشين : إنه يأكل المخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول : لحمها أرطب ، وكان أهل مملكته من الفرس يكتبون إليه : إلى الإله من عبده ، ولم يختتن ، ولم يحلق عانته قط ، وأراد الإفشين قتل المعتصم سمّا هو وقوّاده بعد أن أنفق عليه المعتصم ألفي ألف دينار ، فكان جزاؤه أن منع عنه الطعام حتى هلك ، ثم صُلِب ميتًا ، وأحرق مع أصنام عنده[1] .

يقول أبو تمام فيه :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطفى سرَّ الزنادِ الواري

٣ - عقوق الوالدين

قال ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما »[2].

وقال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا : البغي والعقوق »[3] .

وقال ﷺ : « اثنان يعجلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين » .

قال المناوي :

« رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما » أي غضبهما الذي يخالف القوانين الشرعية ، فإن قيل : ما وجه تعلق رضا الله عنه برضا الوالد قلنا : الجزاء من جنس العمل ، فلما أرضى من أمر الله بإرضائه رضي الله عنه فهو من قبيل لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٣٠٠ - ٣٠٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصححه **الألباني** في صحيح الجامع رقم ٣٥٠١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن أنس ، وصححه **الألباني** في صحيح الجامع رقم ٢٨٠٧ .

قال الغزالي : وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه ، ويقوم بقيامه ، ويمتثل أمره ولا يمشي أمامه ولا يرفع صوته ، ويلبي دعوته ، ويحرص على طلب مرضاته ، ويخفض له جناحه بالصبر ، ولا يمنّ بالبر له ، ولا بالقيام بأمره ، ولا ينظر إليه شزرًا ، ولا يقطب وجهه في وجهه[١]. اهـ .

اعلم يا أخي ، أن العقوق ثكل من لم يثكل ، وعذاب رعف به الدهر ، وبلاء لا يقاومه الصبر .

روى ابن أبي الدنيا عن أبي قَزَعة ، رجل من أهل البصرة، قال: مررنا ببعض المياه التي بيننا وبين البصرة ، فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل عندنا ، فكانت أمه تكلمه بالشيء ، فيقول : انهقي نهيقك . فكانت أمه تقول : جعلك الله حمارًا ، فلما مات ، نسمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة[٢].

وعن أبي عبد الرحمن الطائي قال : كان رجل من بني نهد قد كَبِرَ وضعُف ، يُكنَى أبا منازل ، وله ابن يقال له : مُنازل ، وكان له ولد صغار ، فكان إذا أصاب شيئًا أعطاهم إياه ، وكان يقبض عطاء أبيه ، وكان شيخًا كبيرًا ، فولد للشيخ بنون صغار ، فكان منازل يستأثر عليهم ، فلما خرج العطاء ، خرج منازل يقود أباه ، حتى أجلسه لقبض عطائه ، فلما نودي باسمه ، قام منازل ، فقال : أعطوني عطاءه ، فقام الشيخ فقال : أعطوني عطائي في يدي ، ففعلوا ، فحمل عطاءه ، ثم قام يتوكأ على مُنازل ، فقال مُنازل : هلم أحمله عنك قال : دعه ، فلما خلا له الطريق، فكّ يد أبيه، ثم أخذ العطاء، فذهب به، فانصرف الشيخ، وليس معه في يده شيء فقال له أهله وولده: ما صنعت؟ قال: أخذ منازل عطائي، ثم أنشأ يقول:

جَزَتْ رَحِمٌ بيني وبَيْن منازِلٍ ... جزاءً كما يستنجزُ الدَّيْنَ طالِبُهْ
ورَبَّيْتُه حتى إذا ما هو استوى ... كبيرًا وسادى عامل الرمح غارِبُهْ
تظَلَّمني مالي كذا وَلَوى يَدي ... لوى يَدَهُ الله الذي هُو غالِبُهْ

فأصبح منازلٌ ملويا يده[٣] .

---

(١) فيض القدير (٣٣/٤) . (٢) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٨٤ .
(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص١٠٤ - ١٠٥ ، والإصابة لابن حجر (٢١٢/٣) .

وذكر العلماء أن رجلًا كان عنده والد كبير ، فتأفّف من خدمته ومن القيام بأمره ، فأخذه وخرج إلى الصحراء ليذبحه ، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك فقال : يابني ، ماذا تريد أن تفعل بي ؟ قال : أريد أن أذبحك ، قال : إن أَبَيْتَ إلّا ذبحي فاذبحني عند الصخرة التالية ، أنا كنت قبلك عاقًا لوالدي ، وذبحته عند تلك الصخرة ، ولك يا بنيّ مثلها .

النضيرة بنت الساطرون صاحب الحضر :

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر ، وهو حصن على حافة الفرات ، وبداخله مدينة عظيمة .. أغار عليه سابور وحصره سنتين ، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلًا ، فدّست إليه أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب - ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع - فولجوا منه إلى الحضر ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه ، وسار بها معه فتزوجها ، فبينا هي نائمة على فراشها ليلًا إذ جعلت تململ لا تنام ، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ! قالت : نعم . قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخ ، ويسقيني الخمر . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إليّ بذلك أسرع ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها .

كما كانت سببا في مقتل أبيها ..

والجزاء من جنس العمل .

قال عدي بن زيد :

والحضرُ صابت عليه داهية   من فوقه أيدٍ مناكبُها

ربّية لم توقّ والدَها   لحينها إذ أضاع راقبُها

إذ عنقته صهباءَ صافيــة والخمر هل يهيم شاربهــا
فـأسلمـت أهلـهـا بليلـتـها تظنِ أن الرئـيس خاطبهـا
فكان حظّ العروس إذ جشر(١) الصُّبْـــح دماءً تجري سبائبهـا
وخُرِّب الحضرُ واستبيح وقد أُحرق في خدرها مشاجبها(٢)

فإياك والعقوق ، فإنه أحد الثكلين ، ولرُبَّ عقم أقرّ للعين . فحال العاقّ مع أبيه كالقلم الرّدِي ، والسيف الصَّدي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويرضَعُ أخلافَ الخِلاف ، إن أقدم والده أحجم ، وإذا أعرب أعجم ، وإن أذكى أخمد ، ومتى شوى رَمّدْ ؛ مع أنه كفله مذْدبٌ إلى أن شب ، وكان له ألطف من ربّى وربّ .

يصدق فيه قول القائل :

غذوتك مولودًا وَعُلْتُك يافعًا تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضاقتكِ بالسُّقم لم أبتْ لسقمك إلّا ساهرًا أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونَك بالذِي طُرِقت به دُوني فعيناي تهملُ
تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلمّا بلغت السنّ والغاية التي إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤَمِّلُ
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً كأنك أنتَ المُنْعِمُ المتفضلُ
فليتك إذْ لم ترعَ حقّ أبوّتي فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

الشاعر جرير بن عطية :

كان جرير بن عطية الشاعر أعقّ الناس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع بلَالًا في الكلام ، فقال له بلال : الكاذب بيني وبينك فاعل بأمه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : يا عدو الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير : دعيه ، فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي(٣) .

---

(١) جشر : طلع . (٢) البداية والنهاية (٢/١٦٨-١٧٠) .
(٣) شرح مقامات الحريري للشريشي (٤ / ٢٢٩) .

الحطيئة الشاعر :

كان عاقًّا لأمه وأبيه ، كثير الهجاء حتى إنه هجا أباه وأمه ، وخاله وعمه ، ونفسه وعروسه ، فممّا قال في أمه قوله :

تنحّي فاقعديْ عني بعيدًا ... أراح اللهُ منك العالمينا

أغربالًا إذا استُودعت سِرًّا ... وكانونًا على المتحدثينا

جزاك الله شرًّا من عجوزٍ ... ولقّاك العقوقَ من البنينا

وقال في أبيه وعمه وخاله :

لحاك[1] الله ثم لحاك حقًّا ... أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

جمعت اللؤم لا حيّاك ربي ... وأبواب السفاهة والضلالِ

ومما قال في عروسه :

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى بيت قعيدته لكاعِ

فلمّا كان عاقًّا لوالديه سلّطه الله على نفسه فهجاها ، وهذه والله أقذع من عقوق ولده له .

يقول في نفسه يذمها :

أبتْ شفتاي اليوم أن تتكلما ... بشَرٍّ فما أدرى لِمَن أنا قائلُهْ ؟

أرى لي وجهًا شوَّه اللهُ خلقهُ ... فقبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهْ

ويقال : أن عمر أراد أن يقطع لسانه، فشفعوا فيه حتى أطلقه .

والجزاء من جنس العمل .

أيها المضيِّعُ لآكد الحقوق ، المعتاض من بر الوالدين بالعقوق ، الناسي لِمَا يجبُ عليه ، الغافل عمّا بين يديه ، بر الوالدين عليك دين ، وأنت تتعاطاه باتباع الشين ، تطلب الجنة بزعمك ، وهي تحت أقدام أمك ، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لبنًا ، وأطارت لأجلك وسنًا ، وغسلت بيمينها عنك الأذى ، وآثرتك على

---

(١) قبّحك ولعنك .

نفسـها بالغِذا ، وصيّـرتْ حجرها لك مهدًا ، وأنالتك إحسانًا ورفْدًا ، فإن أصابك مرض أوْ شكاية ، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلتْ مالها للطبيب ، ولوْ خُيّرتْ بين حياتك وموتها ، لطلبت حياتك بأعلى صوتها ، هذا وكم عاملتّها بسوء الخلق مرارًا ، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا ، فلما احتاجتْ عند الكبر إليك ، جعلتها مِنْ أهون الأشياء عليك ، فشبعتَ وهي جائعة ، ورويتَ وهي قانعة ، وقدَّمتَ عليها أهلك وأولادك بالإحسان ، وقابلت أياديها بالنسيان ، وصعب لديك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرها وهو قصير ، هجرتها وما لها سواك نصير ، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف ، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف ، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين ، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين ، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد ﴿ **ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [الحج : ١٠][١] .

٤ - الانتحار

قال رسول الله ﷺ : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار »[٢] .

وقال ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يتوجأ[٣] بها في بطنه ، في نار جهنم ، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن شرب سَمًّا ، فقتل نفسه ، فهو يتحسّاه[٤] في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدا ، ومَنْ تردى[٥] من جبل ، فقتل نفسه ، فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا »[٦] .

وروى مسلم عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال : « ليس على رجل نذر فيما لا يملك ، ولعن المؤمن كقتله ، ومَنْ قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذّب به يوم القيامة ، ومن ادّعى دعوى كاذبة ؛ ليتكثر بها - لم يزده الله إلا قلّة ، ومن حلف على يمين صبرٍ فاجرة » .

---

(١) الكبائر للذهبي ص٤٦، طبع دار الوعي حلب. (٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.
(٣) يطعن . (٤) يشربه في تمهل ويتجرعه . (٥) رمى بنفسه .
(٦) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

وروى الإمام مسلم عن ثابت بن الضحاك قال : قال النبي ﷺ : « من حلف بملة سوى الإسلام كاذبًا فهو كما قال ، ومَنْ ذبح نفسه بشيء ذبح به يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

قال الإمام النووي :

وأما قوله ﷺ: «فهو في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا». فقيل فيه أقوال:

أحدها : أنه محمول على مَنْ فعل ذلك مستحلًا مع علمه بالتحريم ، فهذا كافر ، وهذه عقوبته .

والثاني : أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة ، لا حقيقة الدوام ، كما يقال خلّد الله ملك السلطان .

والثالث : أنَّ هذا جزاؤه ، ولكن تكرّم نسبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يخلد في النار من مات مسلمًا[1] .

عن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هل لك في حصن حصين ومنعة ؟ قال : حصن كان لدوس في الجاهلية ، فأبى ذلك النبي ﷺ للذي زخر الله للأنصار ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو ، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتَوَوا[2] المدينة ، فمرض فجزع ، فأخذ مشاقص[3] له، فقطع بها براجمه[4]، فشخبت[5] يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه ، فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيًا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ، فقال : مالي أراك مغطيًا يديك ؟ قال : قيل لي : لن نُصلح منك ما أفسدت . فقصّها الطفيل على رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ: «اللهم وليديه فاغفر»[6].

قال النووي :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٢١٣). (٢) كرهوا المقام بها لضجر ونوع سقم.

(٣) المشاقص جمع مِشقَص ، سهم فيه نصل عريض . وقال الجوهري : ما طال وعرض .

(٤) البراجم : جمع برجمة وهي مفاصل اليد .

(٥) شخبت يداه : سال دمهما ، وقيل : سال بقوة . (٦) رواه مسلم .

باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر .

أما أحكام الحديث : ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة أن مَنْ قتل نفسه ، أو ارتكب معصية غيرها ، ومات من غير توبة فليس بكافر ، ولا يقطع له بالنار ، بل هو في حكم المشيئة ، وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليدُ قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار ، وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي ، فإنّ هذا عوقب في يديه ، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر . والله أعلم[1] اهـ .

٥ - أكل الرِّبا

قال ﷺ: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه هم فيه سواء»[2].

وفي الصحيح عند أحمد والترمذي والحاكم : « لعن الله الربا ، وآكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده وهم يعلمون » .

وقال ﷺ : « إن أبواب الربا اثنان وسبعون حوبًا[3] ، أدناه كالذي يأتي أمه في الإسلام »[4] .

وقال ﷺ : « أهون الربا كالذي ينكح أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »[5] .

وقال ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم - أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية »[6] .

---

(١) شرح النووي على مسلم (٣١٩/١). (٢) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

(٣) أي سبعون ضربا من الإثم « نهاية » .

(٤) صحيح: رواه الطبراني عن عبد الله بن سلّام، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٢٧ .

(٥) حسن : رواه أبو الشيخ في : التوبيخ ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٢٨ .

(٦) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عبد الله بن حنظلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٧٠ .

وقال ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »(١) .

وقال ﷺ : « الربا ثلاثة وسبعون بابًا ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم »(٢) .

وقال ﷺ : « الربا سبعون حوبًا ، أيسرها أن ينكح الرجل أمه »(٣) .

وقال ﷺ: «ما ظهر في قوم الربا والزنا، إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»(٤).

وقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»(٥).

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

في ضمن هذا الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطريق على الناس : هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه في تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها ، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وآذن هؤلاء إن لَم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله(٦) .

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣١.

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٣ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٥.

(٤) حسن : رواه أحمد عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥١٠ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٩٢ .

(٦) التفسير القيم ص١٧٢ .

قال تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

قال ابن كثير :

شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها لبعثهم ونشورهم ، فقال : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا ، وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق . رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير ، والسديّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل ، نحو ذلك ، وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل أنهم قالوا في قوله : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد[1] اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جنّ .

أقول : وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه ، وقالوا : إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .

أقول : والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال ابن عطية ؛ لأنه إذا ذُكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث .

---

(١) تفسيره ابن كثير (١ / ٤٨٢) .

أما مـا قالـه ابن عطية فهو ظاهر في نفسه ، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضيرت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودًا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعي ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم ، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة ، والمغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فإن التخبط من الخبط ، وهو ضرب غير منتظم ، وكخبط العشواء ، وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم ، كان لابد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها[1] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

قال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

للمفسرين في الآية أقوال :

القول الأول : أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا ، وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الربا ، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنه آكل الربا في الدنيا ، فعلى هذا معنى الآية : إنهم يقومون مجانين ، كمن أصابه الشيطان بجنون .

القول الثاني : قال ابن منبه : يريد إذا بعث الناس من قبورهم خرجوا مسرعين ، لقوله تعالى : ﴿ **يخرجون من الأجداث سراعا** ﴾ [المعارج : ٤٣] إلّا أكلة الربا ، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وذلك لأنهم أكلوا الربا في الدنيا ، فأرباه الله في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ،

(١) تفسير المنار (٣ / ٩٤ - ٩٥) .

فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الإسراع ولا يقدرون . وهذا القول غير الأول لأنه يريد أن أكلة الربا لا يمكنهم الإسراع المشي بسبب ثقل البطن ، وهذا ليس من الجنون في شيء .

القول الثالث : أنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] وذلك لأن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات ، والاشتغال بغير الله ، فهذا هو المراد من مسّ الشيطان ، ومَنْ كان كذلك ، كان في أمر الدنيا متخبطًا ، فتارة الشيطان يجره إلى النفس والهوى ، وتارة الملك يجره إلى الدين والتقوى ، فحدثت هناك حركات مضطربة وأفعال مختلفة ، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان ، وآكل الربا لاشك أنه يكون مفرطًا في حب الدنيا متهالكًا فيها ، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك الحب حجابا بينه وبين الله تعالى ، فالخبط الذي كان حاصلًا في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة ، وأوقعه في ذل الحجاب وهذا التأويل أقرب عندي من الوجهين اللذين نقلناهما عمنّ نقلنا[1] .

خبط في الدنيا يورث خبطًا في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

قوله : ﴿ **لا يقومون** ﴾ حقيقة القيام : النهوض والاستقلال ، ويطلق مجازًا على تحسن الحال وعلى القوة ، من ذلك : قامت وقامت الحرب . فإنْ كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى : لا يقومون يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ؛ أي إلا قيامًا كقيام الذي يتخبطه الشيطان ، وإن كان القيام المجازي ، فالمعنى إما على أن حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعا لجشعهم ، قاله ابن عطية ، ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم ووفرة مالهم وقوة تجارتهم ، بما يظهر من حال الذي يتخبطه الشيطان حتى تخاله قويًا سريع الحركة ، مع أنه لا يملك لنفسه شيئًا ، فالآية على المعنى الحقيقي وعيد لهم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام

---

(١) مفاتيح الغيب (٣ / ٦٥٠ - ٦٥١) .

للحساب ، إلى أن يدخلوا النار ، وهذا هو الظاهر ، وهو المناسب لقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ وهي على المعنى المجازي تشنيع أو توعد بسوء الحال في الدنيا ولُقيّ المتاعب ومرارة الحياة تحت صورة يخالها الرائي مستقيمة[1] اهـ .

يقول صاحب الظلال :

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط ، الذي لا ينال استقرارًا ولا طمأنينة ولا راحة ، وإذا كان هناك شك في الماضي ، أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقى مجالًا للشك أبدا .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم في أنحاء الأرض هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية ، باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية والإنتاج الصناعي في مجموعة من الضخامة في هذه الأقطار ، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار ، ثم هو عالم الحروب الشاملة ، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك ، إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ولا الرخاء المادي ، ولا يُسْر الحياة المادية . وخفضها ولينها في بقاع كثيرة ، وما قيمة هذا كله إذا لم ينشيء في النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة . إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى حقيقة أن الناس في أكثر بلاد العالم رخاءً عاما في أمريكا وفي السويد – وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاءً ماديًّا – أن الناس ليسوا سعداء ، أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج ، وأنهم يغرقون هذا الملل في العربدة

---

(١) التحرير والتنوير (٣ / ٨١ – ٨٢) .

والصخب تارة وفي التقاليع الغريبة الشاذة تارة ، وفي الشذوذ الجنسي تارة ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذي يعشش فيها ، ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها ، فيهربون بالانتحار ، ويهربون بالجنون ، ويهربون بالشذوذ ، ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ، ولا يدعهم يستريحون أبدًا لماذا ؟؟.

السبب الرئيس هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكوسة ، على كل ما لديها من الرخاء المادي من زاد الروح ، من الإيمان ، من الاطمئنان إلى الله ، وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه ، ويتفرّع من ذلك السبب الرئيس الكبير بلاء الربا ، بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويًّا معتدلًا ، بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها ، إنما ينمو مائلًا جانحًا إلى حفنة المموليـن المرابين القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف ، يقرضون وليس هدفهم سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع ، والتي تكلف دعمًا منتظمًا ورزقًا للجميع ، والتي تهيء طمأنينة نفسية للجميع ، ولكن هدفه إنتاج ما يحقق أعلى قدرًا من الربح ، ولو حطم الملايين ، وحَرَم الملايين ، وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق في حياة البشرية جميعًا ، وصدق الله العظيم : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ الآية[1] [البقرة: ٢٧٥].

آكل الربا يعذب في قبره ومعاده بجنس عمله :

وفي حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري : « فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » - وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغرله فاه[2] فألقمه حجرًا » .

---

(١) الظلال (١/٣٢٦ - ٣٢٧) .

(٢) في رواية جرير بن حازم : « فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى =

وفي الحديث : « وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا »(١) .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر ، وإلقامه الحجارة ؛ لأن أصل الربا يجري في الذهب والذهب أحمر ، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا ، وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه(٢) .

فجزاء أكلهم أموال الناس بالباطل أنهم يعومون في ذلك النهر السيىء ، ويلقمون الحجارة ؛ لأنهم قد شبعوا منه في الدنيا جزاءً وفاقًا(٣) .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ :

إن السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية ، وظله الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع - لا يعرفها المناكيد الناشئون في هجير الجاهلية المادية الحاضرة ، ولا مذاق ولا طعم له في حسهم المتحجر البليد .

إن وحوش المرابين القابعين في زوايا ، يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذي تحل بهم المصائب ، فيحتاجون للمال : للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم ، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكزّ الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ، فيلجئون إلى أوكار الوحوش فرائس سهلة ، تسعى إلى الفخاخ

= الرجل بحجر في فيه ، وردّه حيث كان » ويجمع بين الروايتين أنه إذا أراد أن يخرج فغرفاه ، وأنه يلقمه الحجر برميه إياه . الفتح (١٢ / ٤٦٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

(٣) المعاصي وآثارها على الفرد والمجتمع ، تأليف : حامد المصلح ، تقديم : الشيخ عائض القرني ص١٧٦ - ١٧٧ .

بأقدامها ، تدفعها الحاجة ، وتزجيها الضرورة .

هؤلاء الذين كانوا حربًا على الناس ماذا يكون جزاؤهم ؟

حرب معلنة من الله ورسوله ، في صورة شاملة داهمة غامرة ، حرب على الأعصاب والقلوب ، حرب على البركة والرخاء ، حرب على السعادة والطمأنينة ، حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض ، حرب المطاردة والمشاكسة ، حرب الغبن والظلم ، حرب القلق والخوف ، وأخيرًا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول ، الحرب الساحقة الماحقة ، التي تأكل الأخضر واليابس جزاءً وفاقًا بما أثقلوا كاهل الناس بالضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فعم الفقر والسخط ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدّامة ، فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع ، إن لم يقع هذا كله هو خراب النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة ..

حرب بحرب ، والجزاء من جنس العمل .

مثلما خنقوا أنفاس البشرية وسحقوها سحقًا بالربا الملوث بدلًا من الاقتصاد الإسلامي، النظام القوي، والمنبت الطاهر الزكي، والحلم الندي الممثل في واقع أرضي.

قال ﷺ : « ما أحد أكْثَرَ من الرّبا ، إلّا كان عاقبة أمره إلى قلة »[1].

قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال ابن كثير :

يذهبه ، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ [المائدة : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم** ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، وقال :

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾[الروم : ٣٩] .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « الربا وإن كثر فإلى قل »[1] [2] اهـ .

عن سمرة بن جندب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « رأيت البارحة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ، ورجل قائم على رأسه بيده كلّوب من حديد ، فيدخله في شدقه ، فيشقه حتى يخرجه من قفاه ، ثم يخرجه فيدخله في شقه الآخر ، ويلتئم هذا الشدق فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا رجل مستلقٍ على قفاه ، ورجل قائم بيده فِهر ، أو صخرة فيشدخ بها رأسه ، فيتدهده الحجر ، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان ، فيصنع مثل ذلك ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على بناء التنور أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت ارتفعوا ، حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا نهر من دم ، فيه رجل ، وعلى شاطىء النهر رجل بين يديه حجارة ، فيقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا دنا ليخرج رمى من فيه حجرًا ، فرجع إلى مكانه ، فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا روضة خضراء ، وإذا فيها شجرة عظيمة ، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان ، وإذا رجل قريب منه بين يديه نار ، فهو يحشها ويوقدها ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٦) .

فصعدا بي في شجرة ، فأدخلاني دارًا ، لم أر دارًا قط أحسن منها ، فإذا فيها رجال شيوخ وشباب ، وفيها نساء وصبيان ، فأخرجاني منها ، فصعدا بي في الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشبان ، فقلت لهما : إنكما قد طوّفتماني منذ الليلة فأخبراني عمّا رأيت ، قالا : نعم .

أما الرجل الأول الذي رأيت ، فإنه رجل كذاب ، يكذب الكذبة ، فتحمل عنه في الآفاق ، فهو يصنع به مارأيت إلى يوم القيامة ، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء .

وأما الرجل الذي رأيت مستلقيًا على قفاه ، فرجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ، ولم يعمل بما فيه بالنهار ، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة .

وأما الذي رأيت في التَّنور ؛ فهم الزناة وأما الذي رأيت في النهر ؛ فذاك آكل الربا ... »[1] الحديث .

ورواية البخاري : كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ » قال : فيقص عليه ما شاء الله أن يقص . وإنه قال لنا ذات غداة : « إنه أتاني الليلة آتيانِ ، وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق . وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرة ، لرأسه ، فيثلغ[2] رأسه ، فيتدهده[3] الحجر هاهنا ، فيتبع الحجر فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثلما فعل به المرة الأولى » ، قال : «قلت لهما: سبحان الله، ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر[4]

---

(١) رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن سمرة .

(٢) يثلغ : أي يشدخه .

(٣) يتدهده : وفي رواية : « يتدأدأ » ، وفي رواية : « فيتدهدأ » كلٌّ بمعنى ، والمراد دفعه من علو إلى أسفل وتدهده إذا انحط ، وتدأدأ تدحرج وهو بمعناه .

(٤) يشرشر : أي يقطعه شقا ، والشدق : جانب الفم .

شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه - قال : وربما قال أبو رجاء - فيشق » قال : « ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى » . قال : « قلت : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، وأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات » . قال : « فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا »[١] . قال : « قلت لهما : ما هؤلاء؟ » قال : « قالا لي انطلق انطلق » قال : « فانطلقنا ، فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر له فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق ، يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر له فاه ، فألقمه حجرًا » . قال : «قلت لهما: ما هذان؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق». قال : « فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راءٍ رجلًا مرآه ، وإذا عنده نار يحشها[٢] ، ويسعى حولها » . قال : « قلت لهما : ما هذا ؟ » . قال : « قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة[٣] ، فيها من كل لون ربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قط » . قال : « قلت لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق ، فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن». قال: «قالا لي: ارقَ، فارتقيت

---

(١) ضوضوا بغير الهمزة للأكثر ، وحكي الهمز ، أي رفعوا أصواتهم مختلطة ، قال في النهاية : الضوضاة : أصوات الناس ولغطهم ، وكذا الضوضى .

(٢) يحشها : يوقدها . قال الجوهري : حششت النار أحشها حشا أوقدتها ، وقال ابن العربي : حركها .

(٣) قال الداودي : غطاها الخصب - فوصفها بشدة الخضرة - تقول نخلة عتيمة طويلة .

فيها » . قال : « فارتقينا فيها ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ ، وشطر كأقبح ما أنت راء » . قال : « قال لهم : اذهبوا فقعوا » . قال : « وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة » . قال : « قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك » . قال : « فسما بصري صعدًا ، فإذا قصر مثل الربابة[1] البيضاء » . قال : « قالا لي : هذاك منزلك » قال : « قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله ، قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله » . قال : « قلت لهما : فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا ، فما هذا الذي رأيت؟» قال : « قالا لي : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور ، فهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا .

وأما الرجل الكريه المرآة ، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها ، فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة». قال: «فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ . « وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطرًا منهم حسن وشطرًا قبيح فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا

---

(١) الربابة : السحابة البيضاء ، وكل سحابة منفردة دون السحاب ولو لم تكن بيضاء ، والسحابة التي ركب بعضها على بعض .

تجاوز الله عنهم »[١].

٦ - أخذ كتاب الله ثم رفضه والنوم عن الصلاة المفروضة

مرّ في حديث سمرة عقوبة رفض القرآن من العذاب في القبر .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة ، لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه ، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس .

وقال أيضًا : يحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل .

والجزاء من جنس العمل ، فلأن هذا الرجل رفض القرآن ، وجعله وراء ظهره ، وتثاقل عنه ، وكذلك عن الصلاة المكتوبة ، فلم يصلها مع عباد الله في جماعة المسلمين ، بل ثقل رأسه على الفراش ، فجزاؤه أن يثلغ ويرضخ هذا الرأس الذي هذا فعله وشأنه ، وهكذا يعذب إلى قيام الساعة ، فقد جاء في بعض الروايات « .. فيفعل به إلى يوم القيامة »[٢][٣] .

قيل للحسن : رجل يحفظ القرآن ثم لا يقوم به الليل . فقال : ذاك رجل يتوسد القرآن .. فكيف بمن تركه وأعرض عنه .

٧ - الكــذب

قال تعالى : ﴿ **إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ [النحل : ١٠٥] .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا ، بعد صلاة الصبح .

(٢) رواية رواها البخاري مع الفتح (٣ / ٢٥١) .

(٣) المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع ، تأليف حامد المصلح ص ١٧٥ .

قال ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »(١) .

وفي الحديث الصحيح : « وإن الكذب يهدي إلى الفجوز ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

وفي الحديث : « كان أبغض الخلق إليه الكذب »(٢) .

وقال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم ، والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى أن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا »(٣) .

اعلم يا أخي ، أن من أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب .

قال عمر بن عبد العزيز : ما كذبت منذ شددت عليّ إزاري .

قال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : ما من خطيب إلا وتُعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقًا صدق وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقاريض من نار ، كلما قرضتا نبتتا ..

وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب ، حتى يخرج أحدهما صاحبه .

---

(١) حسن : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، ورواه أحمد وابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٩٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك ؟ فأقول : لا أفعل .

وعن خوات التيمي : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يا بُنّي ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ! قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت : يا بن أخي فصدقت ؟[١] .

روى البخاري عن واثلة بن الأسقع قال ﷺ : « إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يري عينيه في المنام ما لم تريا ، أو يقول عليّ ما لم أقل »[٢] .

وأخرج من حديث ابن عمر : « من أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا »[٣] .

وفي حديث سمرة بن جندب عقوبة الكذاب في القبر ، والجزاء من جنس عمله .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : لما كان الكاذب يساعد أنفه وعينه لسانه على الكذب بترويج باطله . وقعت المشاركة بينهم في العقوبة .

وقال ابن حجر أيضًا : قال ابن العربي : شرشرة شدق الكاذب إنزال العقوبة بمحل المعصية ، وعلى هذا تجرى العقوبة في الآخرة بخلاف الدنيا[٤] .

٨ - الزنا

جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنا شر سبيل ، فقال تعالى : ﴿ ولا

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ١٤٥ - ١٥٠) .
(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .
(٣) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .
(٤) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .

تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل ، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار ، يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ، ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى - مع كمال رحمته - شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله ، ومن قبحه أن الله سبحانه وتعالى فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة ، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا ، وكنت فيمن رجمها .

يقول ابن القيم في عقوبة الزاني وأثر الزنى : ومنها الرائحة التي تفوح عليه ، يشمها كل ذي قلب سليم ، تفوح مِنْ فيه وجسده ، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ، ونادت عليه ، ولكن كما قيل :

كلٌّ به مثل ما بي غير أنهمُ مِنْ غيرة بعضهم للبعض عذّالُ

ومنها ضيقة الصدر وحرجه ، فإن الزناةَ يعاملون بضد مقصودهم ، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط ، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش - لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له ، مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته .

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن ، والله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة ، فكذلك مَنْ تمتع بالصور المحرمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن

توسّع في حلاله ضيّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه ، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة[١] .

قال ﷺ : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة[٢] فإذا أقلع رجع إليه »[٣] .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذّاب ، وعائل[٤] مستكبر »[٥] .

يقول ابن القيم :

اعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب المعلق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا . وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخرجاني ، فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور ، أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هم الزناة » .

فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا ، فإنهم كلما همّوا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا[٦] فيه وعادوا بعد

---

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٣٦٥ - ٣٦٨ ، طبع دار الكتاب العربي .

(٢) السحابة .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٠ .

(٤) فقير .

(٥) رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة .

(٦) قلبوا فيه ، وعادوا إليه بقبح وتنكيل .

أن كادوا يخرجون .

ولمّا كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه ، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته ورَوْحه رجعوا على حوافرهم ، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك . قال الله تعالى : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ [السجدة : ٢٠] وقال في موضع آخر : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها** ﴾ [الحج : ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج من هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذبًا به هناك ، كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا ، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار ، وإنما هم يعذبون فيها ، وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكنَّ سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم ، فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى ، والدود يأكل جسومهم[1] اهـ .

كان سفيان الثوري يتمثل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذة ممن ذاق صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء في مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

يقول الحافظ ابن حجر في شرح حديث سمرة بن جندب : مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا ؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك ، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى[2] .

قال ابن حجر في فوائد حديث سمرة بن جندب : قال الكرماني : مناسبة

(١) روضة المحبين ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

العقوبات المذكورة فيه للجنايات ظاهرة إلا الزناة ففيها خفاء ، وبيانه أن العري فضيحة كالزنا ، والزاني من شأنه طلب الخلوة فناسب التنور ، ثم هو خائف حذر حال الفعل كأن تحته النار[1] . والجزاء من جنس العمل .

والتنور مناسب لسعار الشهوة ولهبها ، أما ترى أن العرب تقول رسيس العشق ، مِنْ رَسِّ الحمّى ورسيسها هو أول رمسها، فشبهوا رسيس العشق بحرارته وحرقته برسيس الحمى ، فكيف بنار الشهوة كما يقول عروة :

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي أقبلتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هبني بَرَدْت ببرد الماء ظاهرَه فمن لنار على الأحشاء تتقد

هذا في الحب فكيف في العشق وإتيان المحرم ؟ أعاذنا الله وإياكم .

قال المناوي :

من عقوبةُ الزاني ما لابد أن يعجل في الدنيا ، وهو أن يقع في الزنا بعض أهل داره حتما مقضيًّا ، وذلك لأن الزنا يوجب هتك العرض ، مع قطع النظر عن لزوم الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة فيكون سيئة وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فيلزم أن يسلط على الزاني من يزني به بنحو حليلته ، والله عزيز ذو انتقام ، فإن لم يكن للزاني من يزني به أو يلاط به من نحو حليلة أو قريب عوقب به بوجه آخر .

وعلم مما تقرر مكافأة الزاني بهتك عرضه بالزنا ؛ هبة لنفسه أو لشخص من أتباعه ، والظاهر أن المرأة كالرجل فإذا زنت عوقبت بزنا زوجها ، ووقوع الزنا في أبويها ، وحصول الغيرة لها ، ووقوع الزنا في أبويها . انتهى[2] .

عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إذا ابتليتم بهنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهن .

---

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٦٦) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٤٢ – ١٤٣) .

لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم .

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجلّ ، ويتحرّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا »[1] .

وهذه معاملة بنقيض القصد ، من أراد اللذة في الحرام عُوقب بالأوجاع والأسقام ، جزاءً وفاقًا .

يقول الشنقيطي عن رجم الزاني المحصن ، وجلد الزاني البكر مائة جلدة والملحدون يقولون : إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية ، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان ؛ لقصور إدراكهم عن فهم حكمة الله البالغة في تشريعه .

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى ؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر ، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض ، وتقدير الحرمات ، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني ، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله ، ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة ، وشر

---

(١) رواه البيهقي في سننه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٥٥ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

أمثاله عن المجتمع ، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب ، وجعل قتلته أفظع قتله ؛ لأن جريمته أفظع جريمة والجزاء من جنس العمل .

وتشريع الحكيم الخبير جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد ، وجلب المصالح ، والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاءً وفاقًا[١] .

٩ - التبرج وخلع المرأة ثيابها في غير بيتها

قال رسول الله ﷺ : « ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ستر ما بينها وبين الله »[٢] .

وقال ﷺ : « أيمّا امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل »[٣] .

قال المناوي :

« أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيتها » كناية عن تكشفها للأجانب ، وعدم سترها منهم ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل ، لأنه تعالى أنزل لباسًا ليوارين به سوءاتهن وهو لباس التقوى ، وإذا لم يتقين الله ، وكشفن سوءاتهن ؛ هتكن الستر بينهن وبين الله تعالى ، وكما هتكت ستر نفسها ، ولم تصن وجهها ، وخانت زوجها يهتك الله سترها والجزاء من جنس العمل . والهتك : خرق الستر عما وراءه ، والهتيكة : الفضيحة[٤] .

---

(١) أضواء البيان (٣ / ٣٩٥ - ٣٩٦) .

(٢) رواه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٨ ، وآداب الزفاف .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك ، عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٠٧ .

(٤) فيض القدير (٣ / ١٣٦ - ١٣٧) .

١٠ - إفطار رمضان بلا عذر ولا رخصة

عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم أتاني رجلان ، فأخذا بضَبْعَيَّ ، فأتيا بي جبلًا وعرًا ، فقالا : اصعد . فقلت : إني لا أطيقه . فقالا : إنا سنسهله لك . فصعدت ، حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة ، قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالوا : هذا عواء أهل النار . ثم انطلق بي ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم ، تسيل أشداقهم دمًا . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم »[1] .

« تحلة صومهم » : معناه يفطرون قبل وقت الإفطار .

إذا كان هذا فيمن يفطرون قبل الفطر ، فكيف بمن يفطرون ويأكلون من أول الفجر ؟ فكيف بمن يتعمدون ويجاهرون ؟

قال الذهبي :

عند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عذر ، أنه شر من المكّاس ومدمن الخمر[2] .

١١ - شرب الخمر

قال ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها ، ومبتاعها

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي في « الكبرى » وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٩٥ .

(٢) الكبائر للذهبي ص ٥٧ ، طبع مكتبة السنة .

وساقيها ، ومسقيها »[1] .

وقال ﷺ : « إن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها »[2].

وقال ﷺ : « ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث »[3] .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران ، والمتضمخ بالزعفران ، والجنب »[4] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الخبائث ، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية »[5] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر ، فمن شربها وقع[6] على أمه ، وخالته ، وعمته »[7] .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : رواه أحمد عن ابن عمر ، ورواه الحاكم والضياء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٤) صحيح : رواه البزار عن بريدة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٥٥ .

(٥) حسن : رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٣٩ .

(٦) زنى .

(٧) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٠ .

« الخمر أم الفواحش » أي التي تجمع كل خبيث ، وإذا قيل : أم الخير فهي التي تجمع كل خير ، وإذا قيل : أم الشر فهي التي تجمع كل شر ، (وأكبرَ الكبائر) أي من أكبرها ، من شربها وسكر « وقع على أمه وخالته عمته » أي جامع الواحدة منهن يظن أنها زوجته وهو لا يشعر ومن ثم جعلها الله مفتاح كل إثم ، كما جعل الغناء مفتاح الزنا ، وإطلاق النظر في الصور مفتاح العشق ، والكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان ، والمعاصي مفتاح الكفر ، والكذب مفتاح النفاق ، والحرص مفتاح البخل ، وهذه أمور لا يصدق بها إلا من له بصيرة صحيحة ولب يعرف به ما في نفسه وما في الوجود من خير وشر . وقال المناوي أيضًا :

« الخمر أم الفواحش » الأخروية بل والدنيوية ، لأنها تصدع ، وتكثر اللغو على شربها ، بل لا يطيل شرابها إلا باللغو ، وهي كريهة المذاق ، ورجس ومن عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء ، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتستر العقل الذي هو نور الهدى ، وآلة الرشد ، ألا ترى حمزة – رضي الله عنه – لمّا زال عقله بها ، قال للمصطفى ﷺ : هل أنتم إلا عبيد أبي أو آبائي ؟ فجعله عبدًا لكافر . قال ابن العربي : وهذا قول إدّ ، وحديث إلى الكفر ممتد ، وعذره المصطفى ﷺ لزوال عقله بما كان مباحًا حينئذ ، ولو كان زواله بمحرم ما عذره ، ثم استقر الأمر على شدة التحريم .

وقال : ومن قبائحها وفضائحها أنها تذهب الغيرة ، وتورث الخزي والفضيحة والندامة ، وتلحق شاربها بأحقر نوع الإنسان وهم المجانين ، وتسلبه أحسن الأسماء والصفات ، وتسهل قتل الإنسان ، ومؤاخاة الشيطان ، وهتك الأستار ، وإظهار الأسرار ، وتدل على العورات ، وتهوّن ارتكاب الجرائم والقبائح ، وكم أهاجت من حرب ، وأفقرت من غنى ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفرّقت بين رجل وزوجه فذهبت بقلبه ، وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبرة ، وأوقعت في بليّة ،

وعجّلت من منيّة ، وكم وكم ، ولو لم يكن من فواحشها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف واحد لكفى ، وآفاتها لا تحصى ، وفضائحها لا تستقصى ، وفي هذا القدر كفاية[1] .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ابن حجر :

قال الخطابي والبغوي في «شرح السنة»: معنى الحديث: لا يدخل الجنة ، لأن الخمر شراب أهل الجنة ، فإذا حرم شرابها دلَّ على أنه لا يدخل الجنة ، وقال ابن عبد البر : هذا وعيد شديد ، يدل على حرمان دخول الجنة .

ويحمل الحديث عند أهل السنة على أنه لا يدخلها ولا يشرب الخمر فيها إلَّا إن عفا الله عنه ، كما في بقية الكبائر وهو في المشيئة ؛ فعلى هذا فمعنى الحديث : جزاؤه في الآخرة أن يُحرمَهَا لحرمانه دخول الجنة إلا إن عفا الله عنه . قال : وجائز أن يدخل الجنة بالعفو ، ثم لا يشرب فيها خمرًا ولا تشتهيها نفسه ، وإن علم بوجودها فيها ، ويؤيده حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو . قلت : أخرجه الطيالسي وصححه ابن حبان . وقريب منه حديث عبد الله بن عمرو رفعه : « من مات من أمتي وهو يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الجنة » أخرجه أحمد بسند حسن ، وقد لخص عياض كلام ابن عبد البر ، وزاد احتمالًا آخر ، وهو أن المراد بحرمانه شربها أنه يحبس عن الجنة مدة إذا أراد الله عقوبته ، ومثله الحديث الآخر : « لم يرح رائحة الجنة »

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٥٠٧ - ٥٠٨) .

(٢) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة عن عمر .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ ، وكذا رواه الحاكم وابن عساكر عن ابن عمر .

قال : ومن قال : لا يشربها في الجنة بأن ينساها أو لا يشتهيها ، يقول : ليس عليه في ذلك حسرة ، ولا يكون ترك شهوته إياها عقوبة في حقه ، بل هو نقص نعيم بالنسبة إلى من هو أتم نعيمًا منه كما تختلف درجاتهم ، ولا يلحق من هو أنقص درجة حينئذ بمن هو أعلى درجة منه استغناء بما أعطى ، واغتباطًا له . وقال ابن العربي : ظاهر الحديث أنه لا يشرب الخمر في الجنة ولا يلبس الحرير فيها ، وذلك لأنه استعجل ما أمر بتأخيره ووُعِدَ به ، فحرمه عند ميقاته ، كالوارث فإنه يحرم ميراثه لاستعجاله . وبهذا قال نفر من الصحابة ومن العلماء وهو موضع احتمال وموقف إشكال ، والله أعلم كيف يكون الحال . وفصل بعض المتأخرين بين من يشربها مستحلًا فهو الذي لا يشربها أصلًا ؛ لأنه لا يدخل الجنة أصلًا ، وعدم الدخول يستلزم حرمانها ، وبين من يشربها عالمًا بتحريمها ، فهو محل الخلاف ، وهو الذي يحرم شربها مدة ولو في حال تعذيبه إن عذبَ ، أو المعنى أن ذلك جزاؤه إن جوزي ، والله أعلم[1] .

قال المناوي :

يحرم منها جزاءً وفاقًا ، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، فيا لها من حسرة وندامة ، حيث باع أنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين[2] . والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ﷺ : « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب لم يتب الله

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٣٥) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٥٧) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وكذا رواه الحاكم في المستدرك وابن عساكر عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ .

عليه وسقاه من نهر الخبال »[1] .

شراب بشراب ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، وإنْ تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن مات دخل النار ، وإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة عصارة أهل النار »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد الثانية فاجلدوه ، فإن عاد الثالثة فاجلدوه ، فإن عاد الرابعة فاقتلوه »[3] .

قال المناوي :

قال الحافظ: وقد استقر الإجماع على أن لا قتل فيه[4] .

قال ﷺ : « من مات وهو مدمن خمر ، لقي الله وهو كعابد وثن »[5] .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد والنسائي والحاكم عن ابن عمرو، ورواه أبو عبيد في «الإيمان» وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٨، وتخريج المشكاة ٣٦٤٣ ، ٣٦٤٤ .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٩ .

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم عن ابن عمر، وأبو داود والترمذي، والحاكم عن معاوية ، والبيهقي وأبو داود عن ذؤيب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٥ .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٥٨) .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٢٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٦٧٧ .

١٢ - الخيلاء والكِبْر

قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »(١) .

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جُمته ، إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٢) .

وقال ﷺ : « خرج رجل ممن كان قبلكم في حلة له يختال فيها ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٣) .

قال المناوي :

قيل : هو قارون . وقيل الهيزن - « يختال فيها » : من الاختيال ، وهو التكبر في المشي ، ولا يكون إلا مع سحب الإزار ونحوه ، فكأن المختال تخيل فضيلة في نفسه على غيره ، فاختال متكبرًا بها في مشيه على غيره ، فأمر الله الأرض فأخذته؛أي : ابتلعته . « فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » أي : يغوص في الأرض، ويضطرب ويتحرك في نزوله فيها، وهذا تحذير من الخيلاء وترهيب من التكبر(٤) .

فهذا الرجل الذي اختال بجسده ومشيته يعذب في البرزخ بجنس عمله ، فهو يتجلجل .

قال ابن فارس : أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ، ويندفع من شق إلى شق ، فالمعنى : ينزل فيها مضطربًا متدافعًا .. ليس كمشيته على ظهرها .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن ابن عمر ، وزواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة .

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمرو ، وأحمد والشيخان عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٣ / ٤٣٨) .

قال ابن حجر : ومقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسد هذا الكافر، فيمكن أن يلغز به فيقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت[١]. جزاءً وفاقًا، والعذاب حاصل لجسده .

وقال ﷺ : « من جرَّ ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ: «إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٣].

وقال ﷺ : « من جر إزاره ، لا يريد بذلك إلا المخيلة ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة »[٤] .

قال المناوي :

قال ابن عبد البر : مفهوم الحديث أن الجارّ لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد ، إلا أن جر القميص وغيره من الثياب مذموم بكل حال .

وقال النـووي : لا يجوز الإسبال تحت الكعبين خيلاء فإن كان لغيرهـا كره[٥] اهـ .

هذا الذي يظن أن له قيمة ، ويتكبر ، يكون جزاؤه الهوان ، وأي هوان أعظم من عدم نظر الله إليه يوم القيامة ؟! والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذلّ في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقـون من

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٢٧٢) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) رواه مسلم عن ابن عمر .

(٥) فيض القدير (٦ / ١١٢ - ١١٣) .

عصارة أهل النار طينة الخبال »[١] .

فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض أو نافسوا الجبال طولًا ، يحشرون كالنمل هوانًا ، يغشاهم الذلّ ، ويساقون إلى سجن في النار ، ويُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال جزاءً وفاقًا .

ومن حديث ابن عباس عند الحارث : « خرج عنق من النار ، فأشرف على الخلائق، له عينان تبصران، ولسان فصيح فيقول: إني وكلت بثلاثة: إني وكلت بكل جبار عنيد ، فيلقطون من الصفوف لقط الطير حب السمسم .. » الحديث .

والجزاء من جنس العمل .

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «بينا رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٢].

١٣ - الغلـول

عن ابن طاوس عن أبيه قالَ : استعمل رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت على الصدقة ثم قال له : « اتقِ الله يا أبا الوليد ، لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله وله رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »[٣] .

عن أبي مسعود الأنصاري قال : بعثني النبي ﷺ ساعيًا ، ثم قال : « انطلق أبا مسعود ! ولا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته »[٤] قال : إذًا لا أنطلق ؛ قال : « إذن لا أُكرهك » .

---

(١) قال ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : موقوف ، إسناده حسن . انظر (٤ / ٣٧٥) حديث رقم ٤٦٢٩ من المطالب .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٦ / ٢٢٦) : تفرد به أحمد ، وإسناده حسن .

(٣) صحيح : رواه الحميدي في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، وإسناده صحيح على شرط مسلم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٧ .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٥٧٦ .

الغُلول : هو الخيانة في المغنم أو في مال الدولة .

قال المناوي :

«بعير» يقع على الذكر والأنثى، وجمعه أبعر وأباعِر وبُعرَان. «تحمله» وفي رواية «على رقبتك». «له رغاء»: صوت الإبل. «خوار» صوت البقر. «ثؤاج»: صياح الغنم .

تنبيه :

قال حجة الإسلام : هذا الحمل حقيقي ، فيأتي به حاملًا له ، معذبًا بحمله وثقله يعدل الجبل العظيم ، مرعوبًا بصوته ، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد ، والملائكة تنادي : هذا ما أغله فلان بن فلان رغبة فيه وشحًّا .

وذهب بعضهم إلى أن الحمل عبارة عن وزر ذلك ، وشهرة الأمر ؛ أي يأتي يومَ القيامة ، وقد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيرا له رغاء ، أو بقرة له خوار .. إلخ .

ورده القرطبي بأنه عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وقد أخبر المصطفى بالحقيقة فهو أولى إذْ لا مانع .

وعورض بوجود المانع وهو أنه إذ غلّ ألف دينار مثلا فهي أخف من البعير ، وهو بالنسبة إليها حقير فكيف يعاقب الأخف جناية بالأثقل وعكسه ؟ .

وأجيب أن المراد بالعقوبة بذلك فضيحته على رءوس الأشهاد في ذلك الموقف العظيم ، لا بالثقل ولا بالخفة .

قال ابن المنير: أظن الحكام أخذوا تجريس السارق ونحوه من هذا الحديث ونحوه[1].

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن الشَّملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم ، لم تُصبها المقاسم[2]- لتشتعل عليه نارًا »[3]. والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (١٦ / ١٢٣) . (٢) أي لم تقتسم .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا إسلال[١] ولا غلول »[٢] .

وقال ﷺ : « لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاه له ثغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق[٣] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[٤] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك »[٥] .

وقال ﷺ : « يأيها الناس إن هذا من غنائمكم ، أدُّوا الخيط والمِخْيط ، فما هو فوقُ ، فإن الغُلول عار على أهله يوم القيامة وشنار[٦] ونار »[٧] .

١٤ - السرقة

قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا

---

(١) السرقة الخفية .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن عوف ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٤٦ .

(٣) يريد ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع ، وتخفق : تتحرك .

(٤) يعني الذهب والفضة .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٦) عيب وعار .

(٧) صحيح : رواه ابن ماجة عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٤٦ .

من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن حجر :

قدم السارق على السارقة ، وقدمت الزانية لوجود السرقة غالبا في الذكورية ، ولأن داعية الزنا في الإناث أكثر ، ولأن الأنثى سبب في وقوع الزنا إذ لا يتأتى غالبًا إلا بطواعيتها .

والسرقة : الأخذ خفية ، وعرفت في الشرع بأخذ شيء خُفْية ليس للآخذ أخذه ، قال ابن بطال : يقال لسارق الإبل : الخارب ، وللسارق في الميزان مخسر ، وللسارق في المكيال مطفف .

قال المازري ومن تبعه : صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها ، وخصّ السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب ، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها ، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر ، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد ، ثم لما خانت هانت ، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعرّي في قوله :

يد بخمس مئين عَسْجَدٍ وُديت ما بالها قطعتْ في ربع دينار ؟

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها ، وأرخصها صيانة المال ، فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي ، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين[1] .

لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلمّا خانت هانت ، والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « يأيها الناس ! إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي[2] ، إنه ليس من شيء توعدونه إلا وقد رأيته في صلاتي هذه ، ولقد جيء بالنار حين

---

(١) فتح الباري (١٢ / ١٠٠) .
(٢) تظهر وتنكشف .

رأيتموني تأخرت ، مخافة أن يصيبني من لفحها ، حتى قلت : يارب وأنا فيهم ؟ ورأيت فيها صاحب المحجن[١] يجرّ قصبه[٢] في النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإنْ فُطن[٣] به ؛ قال : إنما تعلّق بمحجني ! وإن غُفِل عنه ذهب به ، حتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ، ولم تتركها تأكل من خُشاش[٤] الأرض ، حتى ماتت جوعًا ، وجيء بالجنة ، فذلك حين رأيتموني تقدمت ، حتى قمت في مقامي ، فمددت يدي ، وأنا أريد أن أتناول من ثمرها شيئًا لتنظروا إليه ، ثم بدا[٥] لي أن لا أفعل »[٦] .

قال ﷺ: «عرضت على الجنة، حتى لو مددت يدي تناولت من قطوفها، وعرضت عليّ النار ، فجعلتُ أنفخ ؛ خشية أن يغشاكم حرّها ، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله ، ورأيت فيها أخا بني دعدع سارق الحجيج ، فإذا فُطن له قال : هذا عمل المحجن ، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء تعذب في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت ، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، فإذا انكسف أحدهما فاسعوا إلى ذكر الله عز وجل »[٧] .

فهذا الذي كان يسرق خفية بمحجن أخرج الله ما خفي منه وهي أمعاؤه ، وعُذِّب بها ، فكان جزاؤه مناسبا لعمله .

---

(١) العصا الملتوية الطرف كالسنارة .
(٢) أمعاءه .
(٣) تنبه أحد لفعله .
(٤) هوام وحشرات .
(٥) ظهر لي .
(٦) رواه أحمد ومسلم عن جابر .
(٧) صحيح : رواه النسائي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٩٦ .

١٥ - قطع الطريق والمحاربة لله ولرسوله

قال تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله وَرسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [المائدة : ٣٣] .

فمجرد إخافته السبيل هو مرتكب الكبيرة ، فكيف إذا أخذ المال ؟ وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر ؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا[١] .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عُكل فأسلموا ، فاجتووا[٢] المدينة ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحُّوا ، فارتدوا ، فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل . فبعث في آثارهم فأتي بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا[٣] .

وعن أبي قلابة عن أنس – رضي الله عنه – قال : قدم رهط من عُكل على النبي ﷺ ، كانوا في الصفة ، فاجتووا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله أبغنا[٤] رسْلًا[٥] ، فقال : ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ ، فأتوْها ، فشربوا من ألبانها وأبوالها ، حتى صحّوا وسمنوا ، وقتلوا الراعي واستاقوا الذودَ ، فأتى النبي ﷺ الصريخ ، فبعث الطلب في آثارهم ، فما ترجّل النهار

---

(١) الكبائر للذهبي ص١٠٨ .

(٢) أي أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، يقال : اجتويت البلد : إذا كره المقام فيه .

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود باب المحاربين من أهل الكفر والردة .

(٤) اطلب لنا ، يُقال : أبغاه كذا طلبه له .

(٥) رسْلا : لبنا .

حتى أُتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وما حسمهم ، ثم ألقوا في الحرّة يستسقون ، فما سقُوا حتى ماتوا[1] قال أبو قلابة : سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله .

قال ابن حجر :

قال ابن بطّال : ذهب البخاري إلى أن آية المحاربة نزلت في أهل الكفر والردة ، وساق حديث العرنيين ، وليس فيه تصريح بذلك ، ولكن أخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة حديث العرنيين وفي آخره قال : « بلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ..** ﴾ الآية ، ووقع مثله في حديث أبي هريرة ، وممن قال ذلك الحسن وعطاء والضحاك والزهري ، قال : وذهب جمهور الفقهاء إلى أنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يسعى في الأرض بالفساد ويقطع الطريق ، وهو قول مالك والشافعي والكوفيين ، ثم قال : ليس هذا منافيًا للقول الأول ؛ لأنها وإن نزلت في العرنيين بأعيانهم لكن لفظها عام يدخل في معناه كل من فعل مثل فعلهم من المحاربة والفساد .

قلت : بل هما متغايران ، والمرجع إلى تفسير المراد بالمحاربة : فمن حملها على الكفر خصّ الآية بأهل الكفر ، ومن حملها على المعصية عمّم ، ثم نقل ابن بطال عن إسماعيل القاضي أن ظاهر القرآن وما مضى عليه عمل المسلمين يدل على أن الحدود المذكورة في هذه الآية نزلت في المسلمين ، وأما الكفار فقد نزل فيهم : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب...**﴾ [محمد: ٤] إلى آخر الآية ، فكان حكمهم خارجًا عن ذلك ، وقال تعالى في آية المحاربة : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ وهي دالة على أنّ من تاب من المحاربين يسقط عنه الطلب بما ذكر بما جناه فيها ، ولو كانت الآية في الكافر لنفعته المحاربة ، ولكان إذا أحدث الحرابة مع كفره اكتفينا بما ذكر في الآية ، وسلم من القتل ، فتكون الحرابة خففت عنه القتل ، وأجيب عن هذا الإشكال بأنه لا يلزم من إقامة هذه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود باب لم يُسْق المرتدون المحاربون حتى ماتوا .

الحدود على المحارب المرتد مثلًا أن تسقط عنه المطالبة بالعود إلى الإسلام أو القتل ، وقد تقدم في تفسير المائدة ما نقله المصنف عن سعيد بن جبير أن معنى المحاربة لله الكفر به ، وأخرج الطبري عن أنس في آخر قصة العرنيين . قال : فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ ثبت في الصحيحين أنهم كانوا من عكل وعرنية ، فقد وجد التصريح الذي نفاه ابن بطال .

قال ابن حجر :

المعتمد أن الآية نزلت أولًا فيهم ، وهي تتناول بعمومها من حارب من المسلمين بقطع الطريق ، لكن عقوبة الفريقين مختلفة .

فإن كانوا كفارًا يخير الإمام فيهم إذا ظفر بهم .

وإن كانوا مسلمين فعلى قولين :

أحدهما : وهو قول الشافعي والكوفيين ينظر في الجناية فمن قَتل قُتل ، ومن أَخَذَ المال قُطع، ومن لم يَقْتل أو لم يأْخذ مالًا نفي، وجعلوا «أو» للتنويع.

ثانيهما : وقال مالك : بل هي للتخيير ، فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة ، ورجح الطبري الأول[1] .

واختلفوا في المراد بالنفي في الآية . فقال مالك والشافعي : يخرج من بلد الجناية إلى بلدة أخرى ، زاد مالك : فيحبس فيها . وعن أبي حنيفة بل يحبس في بلده ، وتُعُقب بأن الاستمرار في البلد ولو كان مع الحبس إقامة فهو ضد النفي ، فإن حقيقة النفي الإخراج من البلد ، وقد قرنت مفارقة الوطن بالقتل قال تعالى : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾ وحجة أبي حنيفة أنه لا يؤمن منه استمرار المحاربة في البلدة الأخرى، فانفصل عنه مالك بأنه يحبس بها ، وقال الشافعي يكفيه مفارقة الوطن والعشيرة خذلانًا وذلًّا[2].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) وهو المناسب لكون الجزاء من جنس العمل .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٢ - ١١٣) .

قال علماؤنا : تقطع يده لأجل أخذ المال ، ورجله للإخافة ؛ لأن اليد هي العضو الذي به الأخذ ، والرجل هي العضو الذي به الإخافة ، أي المشي وراء الناس والتعرّض لهم .

والنفي من الأرض والإبعاد من المكان الذي هو وطنه ؛ لأن العرب كانوا إذا أخرج أحد من وطنه ذُلّ وخضدت شوكته ، قال امرؤ القيس :

.... به الذئب يعوى كالخليع المُعَيّلِ

وذلك حال غير مختصّ بالعرب ؛ فإن للمرء في بلده وقومه من الإقدام ما ليس له في غير بلده .

ثم قال رحمه الله :

ذهب جماعة إلى أنّ «أو» في الآية للتقسيم لا للتخيير ، وأن المذكورات مراتب للعقوبات بحسب ما اجترحه المحارب : فمن قتل قُتل وصلب ، ومَنْ لم يقتل ولا أخذ مالا عُزّر ، ومن أخاف الطريق نُفي ، ومن أخذ المال فقط قطع ، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن والسدي والشافعي[1] .

وعند ابن جرير : قطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ولم يحسمهم وتركهم يتلقمون الحجارة بالحرّة .

ومعنى يتلقمون الحجارة أي يضعون الحجارة في أفواههم من العطش ، كي تستدر الريق .

قال ابن حجر :

سمر أعينهم ، سمل أعينهم وهما بمعنى . قال عياض : سمر العين بالتخفيف كحلها بالمسمار المحمي ؛ فيطابق السمل ، فإنه فسر بأن يدني من العين حديدة محماة حتى يذهب نظرها ، فيطابق الأول بأن تكون الحديدة مسمارًا وفسّروا السمل أيضًا بأنه فقء العين بالشوك ، وليس هو المراد هنا .

وقال ابن حجر :

---

(١) التحرير والتنوير (٦ - ٧ / ١٨٤ - ١٥٥).

حكى ابن بطال عن المهلب أن الحكمة في ترك سقيهم كفرهم نعمة السقي ، التي أنعشتهم من المرض الذي كان بهم[(١)] .

قال: وفيه وجه آخر يؤخذ مما أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب: أن النبي ﷺ قال لما بلغه ما صنعوا : « عطش الله من عطّش آل محمد الليلة » . قال : فكان ترك سقيهم إجابة لدعوته ﷺ .

قلت : وهذا لا ينافي أنه عاقبهم بذلك كما ثبت أنه سملهم ؛ لكونهم سملوا أعين الرعاة[(٢)] .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل .

١٦ - قذف المحصنات

قال الله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : ٤] .

وقال تعالى: ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ [النور:٢٣- ٢٥].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[(٣)] .

قال ابن حجر :

باب رمي المحصنات : أي قذفهنّ ، والمراد : الحرائر العفيفات ، ولا يختص بالمزوّجات ، بل حكم البكر كذلك بالإجماع .

---

(١) فإنهم لما أتوا رسول الله ﷺ ، وقد ماتوا هزلًا كما في رواية عبد الرزاق ، وعند ابن أبي حاتم : بهم جهد ، مصفرة ألوانهم ، عظيمة بطونهم .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٤) .

(٣) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب الحدود باب رمي المحصنات عن أبي هريرة ، ورواه مسلم (٨٩) .

وقال أيضًا : تضمنت الآية الأولى حد القذف ، والثانية بيان كونه من الكبائر ، بناء على أن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد فهو كبيرة ، وهو المعتمد .

وقد انعقد الإجماع على أن حكم قذف المحصن من الرجال حكم قذف المحصنة من النساء ، واختلف في حكم قذف الأرقاء[1] .

قال الفخر الرازي : انعقد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا .

فالمراد بالرمي والقذف ليس الرمي بسرقة أو شرب خمر ، بل القذف بالزنا .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات ، وهن العفيفات الحرائر ، ثيبات أو أبكارًا ؛ بدون دليل قاطع - يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضي آمِنًا ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرّحة ، وسمعتها ملوثة ، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاكٌّ في زوجه ، وكل رجل فيها شاكٌّ في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار ، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوّث ؛ وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومِنْ ثَمَّ لا تُجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ؛ والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجوّ الملوّث الموحي بارتكاب الفاحشة .

لهذا، وصيانةً للأعراض من التهجم، وحمايةً لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم ، شدّد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة- مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية، والثانية أدبية في وسط الجماعة ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ، ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام !

---

(١) فتح الباري (١٢ / ١٨٨) .

والثالثة دينية، فهو منحرف عن الإيمان، خارج عن صراطه المستقيم، والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة ، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت .

وتظل العقوبات التي توقع على القاذف ، بعد الحد ، مصلتة فوق رأسه ، إلا أن يتوب : ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم**﴾ [النور:٥].

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ؛ فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة .

وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته ، وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ، فحينئذٍ تقبل شهادته .

وأنا أختار هذا الأخير ؛ لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف ، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف . ولا يقال : إنه إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ! ولا يحيك في أي نفس ممّن سمعوا الاتهام أنه ربما كان صحيحًا ؛ ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود ، بذلك يبرأ العرض المقذوف تمامًا ، ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية ، فلا يبقى هنالك داعٍ لإهدار اعتبار القاذف المحدود التائب المعترف بما كان من بهتان[1] اهـ .

وانظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل ...

---

(١) الظلال (٤ / ٢٤٩٠ - ٢٤٩١) .

رد لشهادته ومن ثبت افتراؤه سقط الوثوق بكلامه ، هذا الذي قذف بدون إثبات قد دلّ على تساهله في الشهادة ، فكان حقيقًا بأن لا يؤخذ بشهادته ، فما ظنك إذا جلد ظهره بعد ذلك مثلما ألهب ظهور الحرائر بمرّ قوله ، فكيف إذا وصفوا بقول الله فوق ذلك : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ للمبالغة في شناعة فسقهم ، حتى كأن ما عداه من الفسوق لا يعد فسقًا .

حتى ولو كان رقيقًا :

قال ﷺ : « من قذف مملوكه[١] بالزنا ، يقام عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[٢] .

وقال ﷺ : « من قذف مملوكه وهو بريء مما قال ، جُلد يوم القيامة حدًّا ، إلا أن يكون كما قال »[٣] .

قال ابن حجر في باب قذف العبيد من فتح الباري : إن على العبد إذا قذف نصفُ ما على الحر ، ذكرًا كان أو أنثى ، وهذا قول الجمهور . وعن عمر ابن عبد العزيز والزهري وطائفة يسيرة والأوزاعي وأهل الظاهر : حده ثمانون ، وخالفهم ابن حزم فوافق الجمهور .

ثم قال : قال المهلب : أجمعوا على أن الحر إذا قذف عبدًا لم يجب عليه الحد ، ودلّ هذا الحديث على ذلك .

قلت : في نقله الإجماع نظر ، فقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع : سئل ابن عمر عمّن قذف أم ولد لآخر فقال : يضرب الحد صاغرًا . وهذا بسند صحيح ، وبه قال الحسن وأهل الظاهر . وقال ابن المنذر : اختلفوا فيمن قذف أم ولد : فقال مالك وجماعة : يجب عليه الحد ، وهو قياس قول الشافعي بعد موت السيد ، وكذا كل من يقول : إنها عتقت بموت السيد . وعن

---

(١) عبده أو أمته .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

الحسن أنه كان لا يرى الحد على قاذف أم الولد . وقال مالك والشافعي : من قذف حرًّا يظنه عبدًا وجب عليه الحد .

أما في الآخرة :

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة...﴾ الآيات [النور : ٢٣] .

يقول سيد قطب :

لو أفلتوا من الحد في الدنيا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود .

يجسّم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ؛ وهو يصوّرها رميًا للمحصنات المؤمنات وهُنَّ غافلات غارّات ، غير آخذات حذرهن من الرمية ، وهُنَّ بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئًا ، لأنهن لم يأتين شيئًا يحذرنه ! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسّة . ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ : **﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾** [النور : ٢٤] فإذا بعضهم يتهم بعضًا بالحق ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة ، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني . **﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾** [النور : ٢٥] ويجزيهم جزاءهم العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون: **﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**[1] [النور : ٢٥] اهـ .

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في شهادة الألسن والأيدي والأرجل يوم القيامة : تخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى : **﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾** [فصلت : ٢١] لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات ، فهم ينطقون بالقذف ، ويشيرون بالأيدي إلى

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

المقذوفات ، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس للقذف[١] .

قال ابن كثير :

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات – خرج مخرج الغالب – المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولاسيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق ، رضي الله عنهما .

وقد أجمع العلماء – رحمهم الله – قاطبة على أنّ من سبَّها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم[٢].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا** ... ﴾ الآية قال : في شأن عائشة ، وأزواج النبي ﷺ ، وهي مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ الآية [النور : ٢٣ – ٢٥] قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسّر به سورة النور فقوله : وهي مبهمة ، أي : عامة في تحريم قذف كل محصنة ، ولعنته في الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات، فله ما قال الله عز وجل، ولكن عائشة كانت إمام ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح[٣].

وللشيعة لعنهم الله نصيب وافر في الخوض في عائشة – رضي الله عنها – وقد قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله ، ويفعل أفعال مثله

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٨ – ١٩ / ١٩١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣١–٣٢) . (٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٢–٣٣) .

﴿ **والطيبات للطيبين** ﴾ فهي زوجة أطيب الطيبين ﷺ كساها الله بهذه الآيات من الشرف ما كساها ، وحلّاها برونقه من مزايا الفضل ما حلّاها ، فماذا يقول القذفة الأخابث أحفاد عبد الله بن سبأ .

إنَّ القلوب لأجناد مجندة ... لله في الأرض بالأهواء تعترفُ
فما تعارف منها فهوَ مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقد ابتليت الطاهرات العفيفات من نساء المسلمين في مصْرنا بكل علماني وقح ، أو عمائم الضرار ، فيقول الواحد منهم : إنهن لا يرتدين النقاب إلا لحالة نفسية ، أو كبت سعار جنسي ..

والذي تولى كبره في عصرنا وذهب إلى مزبلة التاريخ .. قال عن النقاب : إنه خيمة ، ثم بعد ذلك أتى إلى البيوت العفيفة يلفق ويروّج قصصًا كاذبة ، عن أمير مزواج ، وفتيات ونساء ليس لهن من هدف إلا فورة اللحم ، فابتلاه الله بمن تكلم في عرضه وبيته ، بل وفي ذاته ، بما تعف عنه الألسن المؤمنة التي رطبها ذكر الله ، ولكن ما عفّت ألسن مناوئيه من الشيوعيين والعلمانيين، فأطلقوا العنان في الكلام حول شذوذ الرجل ، وتكلموا عن شواطيء مارسيليا ، وكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل .

ويسخر كل أفاك دعي ... ديوث من نساء المسلمينا
ويهزأ بالحرائر بالنقاب ... ولقد لبسته أم المؤمنينا
فلستم للنقاب وليس منكم ... فذا شرف لسكن الطاهرينا
وما عرف العفاف لكم طريقا ... وفاح الطهر من بيت الأمينا
أترمي بيوت طهر يالئيم ... وبيتك من زجاجٍ هشّ لينا
فسل مارسيليا تخبرك الدواهي ... بما فعل المغني اللعينا
تراقص كل غانية بمصر ... وتشرب رجس خمر القوم طينا
وسل عنك الحشيش بكل ربع ... أو الأفيون حب المجانينا
ستدري يا خبيث إذا التقينا ... حمارًا كنت أم فرسًا هجينا

١٧ - الرياء

قال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلبْ ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك »[١] .

وقال ﷺ : « من أكل برجل مسلم أُكلة ، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبًا ، فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى راءى الله به »[٣] .

وقال ﷺ : « من سمّع سمّع الله به ، وَمَنْ راءى راءى الله به ، وَمَنْ شاقّ شاقّ الله عليه يوم القيامة »[٤] .

وقال ﷺ : « مَنْ يرائي يُرائي الله به ، وَمَنْ يُسَمِّعْ يُسمع الله به »[٥] .

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦ ، وتخريج الترغيب (٧٥/١) ، وتخريج المشكاة ٥٣١٨ .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم في المستدرك عن المستورد بن شداد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٥٩ ، والصحيحة رقم ٩٣١ .
ومعناه : أن يذهب إلى عدو أخيه فيتكلم في أخيه بالقبيح ليطعمه ، والأُكلة : اللقمة .

(٣) رواه أحمد في مسنده ومسلم عن ابن عباس .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ، وابن ماجة عن جندب .

(٥) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٥ .

قال المناوي :

« من يرائي » أي يظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم ، وليس هو كذلك . « يرائي الله به » أي يظهر سريرته على رءوس الخلائق ؛ ليفتضح ، أو ليكون ذلك حظه فقط .

« ومن يسمع » الناس عمله ويظهره لهم ؛ ليعتقدوه ويبرّوه .

« يسمع الله به » يوم القيامة أي يظهر للخلق سريرته ويملأ أسماعهم مما انطوى عليه جزاءً وفاقًا »[1] .

وقال ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سَمّع الله به مسامع خلقه ، وصغّره وحقّره »[2].

لو أن المرائي أخبر الناس بطويته لحقروه ومقتوه ؛ لأنه جعل الله أهون الناظرين إليه ، وعظم شأن المخلوقين ، فجازاه الله بجنس عمله بأن صغّره وحقّره ، جزاءً وفاقًا .

وقال ﷺ : «من قام مقام رياءٍ وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسَمّع»[3].

وقال ﷺ : « من قام مقام رياءٍ راءى الله به ، ومَنْ قام مقام سمعة سَمّع الله به »[4] .

وقال ﷺ : « ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رءوس الخلائق يوم القيامة »[5] .

---

(١) فيض القدير (٦ / ٢٤٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح ، وأحمد والبيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد عن أبي هند الداري ، ورواه البيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن ، حسنه المنذري ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٥) صحيح: رواه الطبراني بإسناد حسنه المنذري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/١٧).

١٨ - النفـاق

قال ﷺ : « إنَّ من شرّ الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين »[١] .

وقال ﷺ : « من شر الناس ذو الوجهين ؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »[٢] .

وقال ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا ، كان له يوم القيامة لسانان من نار »[٣] .

قال المناوي :

« من كان له وجهان في الدنيا » يعني من كان مع كل واحد من عدوين كأنه صديقه ، ويعد أنه ناصر له ، ويذم ذا عند ذا ، أو ذا عند ذا ، يأتي قومًا بوجه ، وقومًا بوجه على وجه الإفساد .

« كان له يوم القيامة لسانان من نار » كما كان في الدنيا له لسان عند كل طائفة .

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٢ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن عمار .

وقال المناوي : رمز السيوطي لحسنه ، وقال الحافظ العراقي سنده حسن انتهى . لكن قال الصدر المناوي : فيه شريك بن عبد الله القاضي ، وفيه مقال : نعم رواه البخاري في الأدب المفرد بسند حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٧٢.

قال الغزالي : اتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات هذه منها ؛ نَعَمْ إن جامل كل واحد منهما وكان صادقًا لم يكن ذا لسانين ، فإن نقل كلام كل منهما للآخر فهو نمّام دون لسان ، وذلك شر من النميمة .

وقيل لابن عمر : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره ، قال : كنا نعده نفاقا على عهد المصطفى - ﷺ[١] .

فهذا نفاق إذا كان غنيا عن الدخول على الأمير والثناء عليه فلو استغنى عن الدخول فدخل فخاف إن لم يثن عليه فهو نفاق ؛ لأنه المحوج نفسه إليه ، فإن استغنى عن الدخول لو قنع بقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورتهما فهو منافق ، وهذا معنى خبر حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب ، لأنه يحوج إلى رعايتهم ومداهنتهم ، أما أنه ابتلي به لضرورة ؛ وخاف إن لم يثن فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز[٢] .

قال ﷺ : « تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خير الناس في هذا الشأن[٣] أشدهم له كراهية ، قبل أن يقع فيه ، وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه ، ويأتي هؤلاء بوجه »[٤] .

١٩ - يقولون ما لا يفعلون

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا

---

(١) لفظ البخاري (٧١٧٨) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن ناسًا قالوا له : إنا ندخل على أمرائنا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم به إذا خرجنا من عندهم . قال ابن عمر : كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٠٩) .

(٣) أي الإمارة .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد عن أبي هريرة .

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[الصف : ٢ - ٣] .

قال ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قرّاؤها »[١] .

والمراد حافظو القرآن الذين لا يعملون به ، وأراد بالنفاق : العملي منه .

قال المناوي :

بسطه بعضهم فقال : أراد نفاق العمل لا الاعتقاد ،.ولأن المنافق أظهر الإيمان بالله له وأضمر عصمة دمه وماله ، والمرائي أظهر بعلمه الآخرة وأضمر ثناء الناس وعرض الدنيا ، والقارىء أظهر أنه يريد الله وحده ، وأضمر حظ نفسه وهو الثواب ويرى نفسه أهلًا له ، وينظر إلى عمله بعين الإجلال ، فأشبه المنافق ، واستويا في مخالفة الباطن والظاهر[٢] .

قال زبيد اليامي : أسكتتني كلمة ابن مسعود عشرين سنة ، وهي : من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه[٣] .

قال ﷺ : « أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وفَتْ ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء؟ ، قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعلمون به »[٤] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، ورواه الطبراني في الكبير ، وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٤ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٧٥٠ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٨٠ - ٨١) .

(٣) أقوال مأثورة وكلمات جميلة ، لمحمد لطفي الصباغ ص١٠ طبع المكتب الإسلامي ونسبها لعيون الأخبار .

(٤) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ، وحسنه في صحيح الجامع رقم ١٢٨ .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أيْ فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] .

وفي رواية البخاري في كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر : «يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن[2] فيها كما يطحن الحمار برحاه، فيُطيف[3] به أهل النار فيقولون : أي فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله ، وأنهى عن المنكر وأفعله » .

وفي رواية عاصم : « وإني كنت آمركم بأمرٍ وأخالفكم إلى غيره ».

قال هلال بن العلاء : طلب العلم شديد ، وحفظه أشد من طلبه ، والعمل به أشد من حفظه ، والسلامة منه أشد من العمل به .

يأيها الرجل المعلم غيره   هلّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذى الضنا   كيما يصح به وأنت سقيمُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أسامة بن زيد .

(٢) في رواية الكشميهني : « كما يُطحن الحمار » بضم أوله على البناء للمجهول ، وفي أخرى بفتح أوله ، وهو أوجه ، وتقدم في رواية « فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار » ، وفي رواية عاصم « فيستدير فيها كما يستدير الحمار » والأقتاب جمع قِتب وهي الأمعاء ، واندلاقها خروجها بسرعة .

(٣) أي يجتمعون حوله ، يقال : أطاف به القوم إذا حلقوا حوله حلقة ، وإن لم يدوروا ، وطافوا إذا داروا حوله ، وبهذا التقرير يظهر خطأ من قال : إنهما بمعنى واحد . اهـ من فتح الباري (١٣ / ٥٦) .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
لاتنه عن خلق وتأتي مثلــه عار عليك إذا فعلت عظيمُ

٢٠ - الغدر والمكر والخديعة

قال ﷺ : « إذا اطمأنَّ الرجل إلى الرجل ثم قتله بعد ما اطمأن إليه ؛ نصب له يوم القيامة لواء غدر »(١) .

وقال ﷺ : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة ، فيقال : ألا هذه غدرة فلان بن فلان »(٢) .

وقال ﷺ : « ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته »(٣) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »(٤) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة »(٥) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء ينصب بغدرته »(٦) .

وقال ﷺ : « لواء الغادر يوم القيامة عند استه »(٧) .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن عمرو بن الحمق ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤ .

(٢) صحيح : رواه الطيالسي ، وأحمد عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٤٩ .

(٣) صحيح : رواه عن أبي سعيد عن ابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٣٩ .

(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

(٥) رواه أحمد والشيخان عن أنس ، وأحمد ، ومسلم عن ابن مسعود ، ومسلم عن ابن عمر .

(٦) رواه البخاري عن ابن عمر .

(٧) صحيح : رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٠٨ .

وقال ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمان له ، ولا دين لمن لا عهد له »[١] .

قال المناوي عن الغادر :

«ينصب له يوم القيامة لواء غدر» أي بعلم يعرف به في ذلك الموقف الأعظم، تشهيرًا له بالغدر على رءوس الأشهاد ، فلما كان إنما يقع مكتومًا مستورًا اشتهر صاحبه بكشف ستره لتتم فضيحته وتشيع عقوبته، وذكر في رواية أخرى أن ذلك اللواء ينصب عند استه مبالغة في غرابة شهرته وقبيح فعلته وعلى هذا فاللواء حقيقي[٢].

وقال المناوي أيضًا :

يرفع له علم يوم القيامة خلفه ، تشهيرًا له بالغدر ، وإخزاءً وتفضيحًا على رءوس الأشهاد ، ينادي عليه في ذلك المحفل العظيم : ألا إن هذه غدرة فلان أي علامة على غدرة فلان ابن فلان ، ويرفع في نسبه حتى يتميز عن غيره تمييزًا تامًّا ، وظاهره أن لكل غدرة لواء ، فيكون للواحد ألوية بعدد غدراته ، وحكمة نصب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بضد الذنب، والغدر خفي، فاشتهرت عقوبته بإشهار اللواء[٣].

وإنما كان اللواء عند استه ؛ لتكون الصورتان مكشوفتين : الظاهرة في الأخلاق ، والباطنة في الخلق .

وقال ﷺ : « لكلّ غادر لواء يوم القيامة ، يرفع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة »[٤] .

قال الذهبي في قتال مصعب بن الزبير للمختار :

قيل : كان المختار في عشرين ألفًا . ثم إن مصعبًا أساء فأمّن بقصر الإمارة خلقًا ، ثم قتلهم غدرًا .

جاء مصعب يزور ابن عمر فقال : أي عمّ ! أسألك عن قوم خلعوا الطاعة ، وقاتلوا حتى إذا غُلبوا تحصنوا ، وطلبوا الأمان ، فأُعطوا ، ثم قُتلوا . قال : كم العدد ؟ قال خمسة آلاف . فسبح ابن عمر ، ثم قال : يا مصعب !

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٥٦.

(٢) فيض القدير (١ / ٢٨٩) . (٣) فيض القدير (٢ / ٣٧٧) .

(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

لو أن امرأً أتى ماشية الزبير ، فذبح منها خمسة آلاف في غداة أكنت تعده مسرفًا؟ قال: نعم . قال: فتراه إسرافًا في البهائم، وقتلت من وحد الله، أما كان فيهم مكره أو جاهل ترجى توبته ، اصبُب يا بن أخي من الماء البارد ما استطعت في دنياك[١].

وقال رجل لمصعب : من عفا ، عفا الله عنه ، ومن قتل لم يأمن القصاص .

وقتل مصعب ...

٢١ - الخيانة

قال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخره له في الآخرة - من قطيعة الرحم ، والخيانة ، والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا »[٢].

قال الذهبي في ترجمة « المنتصر بالله » الخليفة العباسي :

ورد عنه أنه قال في مرضه : ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة ، عاجلت أبي فعوجلتُ ، وكان يُتهم بأنه واطأ على قتل أبيه ، فما أُمهل .

وجلس مرة للهو ، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج ، وحوله كتابة فارسية ، فطلب من يقرأ ، فأُحضر رجل ، فنظر ، فإذا فيها :... فقطّب وسكت ، وقال : لا معنى له . فألحّ المنتصر عليه ، قال : فيها : أنا شِيرَوَيْه بن كسرى بن هرمز ، قتلت أبي ، فلم أُمتّع بالملك سوى ستة أشهر . قال : فتغير وجه المنتصر ، وقام .

قال جعفر بن عبد الواحد : قال لي المنتصر : يا جعفر ، لقد عُوجِلت ، فما أُذني بأُذني ، ولا أبصر بعيني .

وقال الذهبي أيضًا عن المنتصر بالله :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٥٤٣ - ٥٤٤) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩١٥ ، ٩٧٦ .

تحيلوا[١] إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه ، فأشار بفصده ، ثم فصده بريشة مسمومة ، فمات منها .

ويقال : إن ابن طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة ، فهلك[٢].

والجزاء من جنس العمل .

وقال الذهبي في ترجمة « ابن هبيرة » :

قال ابن الجوزي : استيقظ وقت السحر ، فقاء ، فحضر طبيبه ابنُ رشادة ، فسقاه شيئًا ، فيقال : إنه سمه ، فمات ، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سمًّا ، فكان يقول : سَقَيْتُ ، فَسُقيت . فمات .

والجزاء من جنس العمل .

٢٢ - الظلـم

للظالمين يقول ابن الجوزي :

أما سمعتم منادي ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ﴾ أما ينذركم إعلام ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة** ﴾ أما يفصم عرى عزائمكم ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ أما يقصر من قصوركم ﴿ **وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ أما سمعتم هاتف العبر ينادي : ﴿ **فكلًّا أخذنا بذنبه** ﴾ .

يا هذا ، ظلمك لنفسك غاية في القبح ، ألا إنّ ظلمك لغيرك أقبح ، ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه ، وإنْ لم تعطه فلا تأخذ منه ، لا تشابهنّ الحية ، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه ، ولا تتمثلنّ بالعقاب في الحيوانات أخيار وأشرار كبني آدم ، فالتقط خير الخلال وخل خسيسها[٣] .

ذهبت لذات الظالمين بما ظلموا وبقي العار ، وداروا إلى دار العقاب وملك الغيرُ الدار ، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار ، فلا مغيث ولا أنيس ، ولا رفيق ولا جار .

---

(١) أي الأتراك . (٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣-٤٥) .

(٣) المدهش لابن الجوزي ص٥٥٠ - ٥٥١.

أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار ، فإذا قاموا يوم القيامة زاد البلاء على المقدار ﴿ **سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار** ﴾ لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ .

قال بعض الحكماء : أعجل الأمور عقوبة وأسرعها لصاحبها سرعة ظلم من لا ناصر له إلا الله ، ومجاورة النعم بالتقصير ، واستطالة الغني علي الفقير .

ويقول الشاعر :

فإن قلْتمُ إنا ظلمنا فلم نكن ظلمنا ولكنَّا أسأنا التقاضيَا

وقال آخر :

تأنَّ ولا تعجل وكن مترفقًا وكن راحمًا للناس تُبْلَى براحمِ

وقال الشاعر :

إذا جار الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهن في القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

وقال أبو العتاهية :

أما والله إن الظلمَ لؤمٌ وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا غدًا عند الإله مَنِ الملومُ

قال كعب لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –:ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء . فقال عمر : إلا مَنْ حاسب نفسه . قال كعب : والذي نفسي بيده إنها لكذلك إلا من حاسب نفسه ، ما بينهما حرف . يعني في التوراة .

خرج عمر بن العزيز يومًا ، فقال : ما شاء الله ! كان الوليد بن عتبة بالشام ، والحجّاج بالعراق ، وقرّة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيّان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا .

قال محمود الورّاق :

إني وهبت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي
ورأيته أسدى إليّ يدا فأبان منه بجهله حلمي

رجعت إساءته علي له حُسْنًا فعاد مضاعف الجرمِ
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الذم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسيء إليه في الحكمِ
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بكيتُ له من الظلمِ[(١)]

تقول العرب للمسيء المفرط في الإساءة : هذا أظلم من حيّة ، وأظلم من ذئب ، ويقولون : أظلم من ورل[(٢)] .

سبحان الله .

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالمٌ إلا سيُبْلَى بظالمِ

ذلك أن الورل يقوى على الحيات كلها ، ويأكلها أكلًا ذريعًا ، وكل شدة يلقاها ذو جُحر من الحية تلقى مثل ذلك من الورل .

قال ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[(٣)] .

وقال ﷺ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »[(٤)] .

قال المناوي :

الظلم : هو مجاوزة الحد والتعدّي على الخلق ، وقال الراغب : هو لغةً وضع الشيء في غير موضعه المختص به بنقص أو زيادة أو عدول عن وقته أو مكانه ، وأقبح أنواعه ظلم من ليس له ناصر إلا الله ؛ قال ابن عبد العزيز : إياك ! إياك أن تظلم من لا ينتصر عليك إلا بالله !

إن الظلم في الدنيا ظلمات على أصحابه بمعنى أنه يورث ظلمة في القلب ، فإذا أظلم القلب تاه وتحير وتجبر ، فذهبت الهداية والبصيرة ، فخرب القلب ، فصار صاحبه في ظلمة يوم القيامة ، فالظلمة معنوية ، وقيل : حسية ، فيكون ظلمه

---

(١) نزهة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٦٦ - ٣٦٩) .
(٢) الورل : دابة كالضب ، أو العظيم من أشكال الوزغ ، طويل الذنب صغير الرأس .
(٣) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠ .
(٤) رواه الشيخان، والترمذي، عن ابن عمر.

ظلمات عليه فلا يهتدي في القيامة بسببه ، وغيره من المؤمنين يسعى نوره بين يديه . وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب ، فإذا سعى المتقون بنورهم احتوشت ظلمات ظلم الظالم ، فغمرته فأعمته ، حتى لا يغني عنه ظلمه شيئًا[١] .

ومن أحسن ما قيل :

إذا ظالم استحسن الظلم مذهبًا ... ولجّ عُتُوًّا في قبيح اكتسابِهِ

فكله إلى ريب الزمان فإنه ... ستبدي له ما لم يكن في حسابِهِ

فكم قد رأينا ظالمًا متجبرًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابِهِ

فلما تمادى واستطال بظلمه ... أناخت صروف الحادثات ببابِهِ

وعوقب بالظلم الذي كان يقتفي ... وصبّ عليه الله سوط عذابِهِ[٢]

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين »[٣] .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة »[٤]. فهي سريعة الوصول .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب »[٥].

وفي حديث أحمد عن أبي هريرة مرفوعًا : « دعوة المظلوم مستجابة ولو كان فاجرًا وفجوره على نفسه » . وإسناده كما في الفتح حسن .

قال المناوي :

« اجتنبوا دعوة المظلوم » وذلك مستلزم لتجنب جميع أنواع الظلم ، على

---

(١) فيض القدير (١ / ١٣٤) . (٢) فيض القدير (٢ / ٣٦٦) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن خزيمة بن ثابت ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٦ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٨٦٨ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع عن ابن عمر رقم ١١٧ ، والصحيحة رقم ٨٦٩ .

(٥) حسن : رواه أحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨ .

أبلغ وجه وأوجز إشارة وأفصح عبارة ؛ لأنه إذا اتقى دعاء المظلوم لم يظلم ، فهو أبلغ من قوله : لا تظلم . وهذا نوع شريف من أنواع البديع يسمى تعليقًا .

« فإنها تحمل على الغمام » أي يأمر الله برفعها حتى تجاوز الغمام – أي السحاب الأبيض – حتى تصل إلى حضرته تقدس ، وقيل : الغمام شيء أبيض فوق السماء السابعة ، فإذا سقط لا تقوم به السموات السبع ، بل يتشققن قال الله تعالى : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ [الفرقان : ٢٥] وعلى هذا فالرفع والغمام حقيقة ولا مانع من تجسيم المعاني[١] .

قال ﷺ: «أشد عذابًا للناس في الدنيا– أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة»[٢].

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أشد الناس يوم القيامة عذابًا إمام جائر »[٣] .

قال سقراط : ينبوع فرج العالم الإمام العادل ، وينبوع خرابهم الملك الجائر .

قال المناوي :

« أشـد الناس » أي من أشدهم « عذابـًا للناس في الدنيا » أي بغير حق « أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة » فكما تدين تدان .

وفي الإنجيل : بالكيل الذي تكتال به يكال لك .

وقضيته أن لا يكون في النار أحد يزيد عذابه عليه ، ويعارضه الأخبار الآتية عقبه ، وآية ﴿ **أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ [غافر : ٤٦] وأجيب بأن الناس الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل نوع ، بل من يشاركهم في ذلك المعنى المتوعـد عليه بالعذاب ، ففرعون أشد الناس الزاعميـن للإلهية عذابـًا ،

---

(١) فيض القدير (١ / ١٤١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن الوليد ، والحاكم في المستدرك عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠٩ .

(٣) حسن : رواه أبو يعلي في مسنده ، والطبراني في « الأوسط » وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠١٢ .

ومن يُقتدي به في ضلالةِ كفرٍ ، أشد عذابًا ممن يقتدى به في ضلالة بدعة ؛ والإمام الجائر الذي ولايته محيطة ، أشد عذابا من حاكم بلدة أو قاضيها . ومَنْ صور صورة تعبد - كما كانت تفعل الجاهلية ، وكما يفعل النصارى - أشد عذابًا ممن صورها لغير ذلك كالزينة . وهكذا ذكره القرَطبي وغيره . وإلا فإبليس أشد عذابًا من هؤلاء ومن غيرهم . وكذا قابيل ، ومن قتل نبيًّا أو قتله نبي[1].

صاح هذي غربة الحـــقّ ووعـــد الأنبيـــاءْ

وسْط أجلافٍ غلاظ	وسْط سجن الأشقياءْ
وضياع الصدق دهرًا	وذهـــاب الشرفـــاءْ
وبكاء الأرض شوقًا	لندى هَذِي السمـــاءْ
وظهور الفسق بحـرًا	وهجير الكفر جـاءْ
وخنـوع القـوم ذلًّا	وانمحى صوت الإباءْ
كيف يا صاح نسيت قتل أم	هتك عرض ذبح طفل ودماءْ
سب دين، لعن حبر، قذف أخت	قتل شيخ رافع اليد للسمـاءْ
يا دمائي لست مني إن جهلتِ	أن ليل الكفر قبـر الأتقيـاءْ
إن جهلتِ أنّ قومي ضيعوا عهـ	ـدًا وفجـرًا ضيعـوا أغلى نـداءْ
إن جهلت أنّ داري غبت عنها	بلد الأبرار داري وهي مأوى الأنبياءْ
وغريب الدار لا ينسى جنانـا	فاح فيها الطهر عطرًا .والضياءْ
جنة الفردوس قد هاج حنيني	لـرؤى الحـور ولقيـا الشهـداءْ
سنة الرحمن في الناس ابتـلاء	فلتخضبْ يا إلهي نحري الفاني الدماءْ

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا »[2] . والجزاء من جنس العمل .

وراوي هذا الحديث هو هشام بن حكيم ، ولما مرّ على أناس من الأنباط قد

---

(١) فيض القدير (١ / ٥١٦ - ٥١٧) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن هشام بن حكيم ، وأحمد والبيهقي في الشعب عن عياض بن غنيم . وقال العراقي : إسناد أحمد صحيح .

أقيموا في الشمس ، وصُب على رءوسهم الزيت ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : يعذبون في الخراج أو الجزية. فقال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول.. وساقه[1].

فكيف بمن يعذب المسلمين !!!

إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فكيف بمن يحبس المسلمين؟!

إن من عذب الناس عذّبه الله ، ﴿ **لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ [الفجر : ٢٥ - ٢٦] إن عذاب الله يتكلم ..

إن عذاب الله شديد ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ [الفرقان : ١٢] ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ [الملك : ٨] .

إن أسير الدنيا يومًا من الأيام تفك قيوده وتفصم كبوله ، أما أسير الآخرة فهو الأسير حقا ﴿ **إن لدينا أنكالًا وجحيمًا** ﴾ [المزمل : ١٢] ﴿ **خذوه فغلوه** ﴾ [الحاقة : ٣٠] ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ [الرحمن: ٤١]. سلسلة تجمع ما بين الناصية والقدم من الخلف .

جمع النواصي مع الأقدام صيّرهمْ ... كالقوس محنية من شده الوترِ

جزاءً وفاقًا بما عملوه وما فعلوه بالموحدين في دار الدنيا .

إن كنت لم تسمعْ فسلْ عما جرى ... مثلي ولا ينبيك مثل سجينِ
واسأل ثرى «الحربيّ» أو جدرانه ... كم من كسير فيه أو مطعونِ
وسل «العروسة» قُبّحت من عاهر ... كم من جريح عندها وطعينِ
واسأل «زنازين» الجليد تجبك عن ... فن العذاب ، وصنعةِ التلقينِ
بالنار أو بالزمهرير فتلك في ... حين ، وهذا الزمهرير بحينِ
يُلقى الفتى فيه لياليَ عاريًا ... أو شبه عارٍ في شتا «كانونِ»
وهناك يملي الاعتراف كما اشتهوا ... أوْلا ، فويل مخالف وحَرونِ
وسل «المقطم» وهو أعدل شاهد ... كم من شهيد في التلال دفينِ
قتلته طغمة مصر أبشع قتلة ... لا بالرصاص ولا القنا المسنونِ

---

(١) فيض القدير (٢ / ٣٠٤) .

بل علقوه كالذبيحة هُيئت ... للقطع والتمزيق بالسكينِ
وتهجدوا فيه لياليَ كلها ... جلد ، وهم في الجلد أهل فنونِ
فإذا السياط عجزن عن إنطاقه ... فالكي بالنيران خير ضمينِ
ومضت ليالي والعذاب مُسجَّر ... لفتى بأيدي المجرمين رهينِ
لم يعبئوا بجراحه وصديدها ... لم يسمعوا لتأوّهٍ وأنينِ
وجرى الدم الدفّاق يسطر في الثرى ... يا إخوتي ! استشهدت فاحتسبوني
لا تحزنوا ، إني لربي ذاهب ... أحيا حياة الحر لا المسجونِ
قولوا لأمي لا تنوحي واصبري ... أنا عند خالقي الذي يهديني
أنا إن حرمت وداعكم لجنازتي ... فملائك الرحمن لم يدعوني
إن لمْ يصلّ عليّ في الأرض امرؤٌ ... حسبي صلاتهم بعليين
وإذا حرمت العُرس في الدنيا فلي ... ما شئت فيها من حسانٍ عينِ
أماه حسبك أن أموت معذبًا ... في الله لا في شهوة ومجونِ

ويقول في موضع آخر :

أعرفت ما قاسيتُ في زنزانة ... كانت هي القبر الذي يؤويني ؟!
لا بل ظلمت القبر ، فهو لذي التقى ... روض، وتلك جحيم أهل الدينِ!
هي في الشتاء وبرده «ثلاجة» ... هي في هجير الصيف مثل أتونِ
نُلقى ثمانية بها أو سبعة ... متداخلين كعلبة السردينِ
هي منتدانا وهي غرفة نومنا ... وهي «البوفيه» وحجرة «الصالونِ»
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا ... هي ساحة للعب والتمرينِ
وهي «الكنيف» وللضرورة حكمها ... ما الذنب إلا ذنب من سجنوني
هي كل مالي في الحياة فلم يعد ... في الكون ما أرجوه أو يرجوني
الأرض كل الأرض عندي أرضها ... أما السماء فسقفها يعلوني
فيها انقطعت عن الوجود فلم أعد ... أعنيه في شيء ولا يعنيني
لا أعرف .... عن دنيا الورى ... إلا من الأحلام لو تأتيني

ويقول :

من أجل ضبط وريقة أو إبرة ... ولغير شيء طالما استاقوني
وتجمعوا حولي ضواري همها ... نهشي .. وما لي حيلة تنجيني
إن نمت توقظني السياط سريعة ... فالنوم ليس يباح للمسجونِ !
وإذا تحدثنا لنذهب بالكرى ... حظروا الحديث عليّ كالأُفيون
وإذا تلونا في المصاحف حرّموا ... حمل المصاحف وهي خير قرينِ
هذي سياستهمْ وتلك عقولهمْ ... عيشوا بغير تحرك وسكون !
إياكمو أن تشتكوا أو تألموا ... موتوا بغير توجع وأنينِ !
سدوا عليّ الباب كي أخلو إلى ... كتبي فلي في الكتْب خير خدينِ
وخذوا الكتاب، فإن أنستي مصحفٌ ... أتلوه بالترتيل والتلحينِ
وخذوا المصاحف، إن بين جوانحي ... قلبا بنور يقينه يهديني
الله أسعدني بظل عقيدتي ... أفيستطيع الخلق أن يشقوني ؟!
قالوا كِذَابًا : دعوة رجعية ... معزولة عن قرنها العشرينِ
الناس تنظر للأمام ، فما لهم ... يدعوننا لنعود قبل قرونِ
رجعية أنّا نغار لديننا ! ... ونقوم بالمفروض والمسنونِ
رجعية أنا نصون حريمنا ! ... بئس الحريم يكون غير مصونِ
رجعية أنا نذرنا أنفسًا ... لله تحيا ، لا لعيش دونِ !
رجعية أنا نربي جندنا ... للحق ، لا لتفاهة ومجونِ !
رجعية أن الرسول زعيمنا ! ... لسنا الذيول لـ «ماركس» و «لِنين»
رجعية أن الجهاد سبيلنا ... نعم الجهاد ذريعة التمكينِ
رجعية أن يحكم الإسلام في ... شعب يرى الإسلام أعظم دين!
أو ليس شرع الله ، شرع محمد ... أولى بنا من شرع نابليونِ ؟!
يارب ! إن تكُ هذه رجعية ... فاحشرنِ رجعيًّا بيوم الدينِ[1]

يقول رئيس دولة عربية لصحيفة السياسة الكويتية : أنا المعتقل الوحيد

(١) نونية القرضاوي .

في ... والجزاء من جنس العمل .

ثم يشرح ما يقصده قائلًا : أي واحد يتم اعتقاله لمدة ١٥ يومًا إذا ارتكب شيئًا ما .

أنا المعتقل الوحيد مدى الحياة، لا أستطيع الخروج إلا بحراسة، فقدت حريتي الشخصية، حقيقة أنا أجهدت تمامًا طيلة هذه الفترة[1]. والجزاء من جنس العمل.

قال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا ، البغي والعقوق » .

يقول سجين موحد :

إنْ كنت يا زنزان قد حرمتني	من أنس أحبابي ومن أصحابي
أو كنت يا زنزان قد غيبتني	عن مجلس الأخيار من أترابي
أو حزّ في نفسي فراق عشيرة	أو هاجني الأشواق للأحبابِ
فلقد وجدت لديك خير أحبة	من كل تالٍ قانت أوّاب
ووصلتني بالله في غسق الدجى	أغفو لدى القيوم في محرابي
وجعلت زادي في النهار تلاوة	من خير هدي للورى وكتابِ
إن كان حجمك في الحقيقة ضيقًا	فلأنت في نفسي أعز رحابِ

ويقول آخر :

في ساعة السحر الجميـ	ـل أتوا وقد كنا رقودْ
سرقوا الصلاة من المكا	ن الحق في وقت السجودْ
سرقوا الأحاديث التي	قد قالها خير الوجودْ
فلتسرقوا كتبي خذو	ها واحرقوا بحثًا مفيدْ
أوْ راقبوا طفلًا صغيـ	ـرًا هدّدوا هذا الوليد
روسية ماذا جنيـ	ـتم بعدها غير الجمود
ماذا جنيتم واسألوا	سيتا وأسلاك الحدودْ

(١) جريدة الشعب الصفحة الرابعة عشرة الثلاثاء ١١ جمادى الآخرة سنة ١٤١٢، ١٧ ديسمبر ١٩٩١ تحت عنوان أولاد البلد .

نحن يا مقداد أوفى ... للعقيـدة بالعهـودْ
بالعقيـدة سـوف نمضي ... إخـوة حتـى نعـودْ
قالوا ستخرج من هنا ... وارجعْ فقبلتُ القيـودُ
إني بغيـر عقيـدتـي ... أحيا كشيطَان مريدْ

وكتب آخر على لسان سجين في ليلة تنفيذ إعدامه :

أبتاه ماذا قد يخط بناني ... والقيـد والـجلّاد ينتظرانـي
لم تبق إلا ليلة أحيا بهـا ... وأحس أن ظلامها أكفانـي
ستمـر لست أشك فـي ... هذا وتحمل بعدها جثمانـي
أبتاه إن طلع الصباح على الدنا ... وأضاء نور الشمس كل مكانِ
واستقبل العصفور بين غصونه ... يومًا جديدًا مشرق الألـوانِ
وسمعت أنغام التفاؤل ثـرة ... تجرى على فم بائع الألبانِ
وأتى يدق كما تعوّد بابنـا ... سيدق باب السجـن جلّادانِ
وأكون بعد هنيهة متأرجحـا ... في الحبل مشدودًا إلى العيدانِ
ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما ... صنعته في تلك الربوع يدانِ
صنعوه في بلد يشع حضارة ... وتفيض منه مناهـل العرفـانِ
أو هكذا زعموا وجيء به إلى ... بلد الجريح على يد الأعوانِ
وإذا سمعت نشيج أمي في الدجى ... تبكي شبابًا ضاع في الريعانِ
وتكتِّم الحسرات في أعماقها ... ألمًا تواريه عـن الجيـرانِ
فاطلب إليها الصفح عنى إنني ... لا أرتجي منها سوى الغفرانِ
ما زال في سمعي رنين حديثها ... ومقالهـا فـي رقـة وحنـانِ
أبنيّ إني قد غدوت عليلـة ... لم يبق لي جلد على الأحزانِ
فأذق فؤادي فرحة بالبحث عن ... بنت الحلال ودعك من عصياني
كـانت لهـا أمنيّـة مرجـوة ... يا حسن آمال لها وأماني
وإلى لقاء تحت ظل عدالة ... قدسيـة الأحكـام والميـزانِ

يقول ابن الجوزي :

اعلم أن الجزاء بالمرصاد ، إن كانت حسنة أو كانت سيئة .

ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح ، وربما جاءت العقوبة بعد مدة .

وقلّ من فعل ذنبًا إلا قوبل عليه ، قال الله عز وجل ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

آدم لم يسامح بلقمة ، ودخلت النار امرأة في قطة .

وأنت ....

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابدِ
ونسيت أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحـدِ

يونس عليه السلام خرج عن قومه بغير إذنـه، فالتقمه الحوت .

ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا فقال له شيخه : ما هذا النظر ؟ ستجد غبّه . فنسي القرآن بعد أربعين سنة .

وقال آخر : قد عبت شخصا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت بعض أسناني ، ونظرت إلى امرأة لا تحلّ لي ، فنظر إلى زوجتي من لا أريد .

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه إلى مكان ، فقال له الأب : حسبك إلى هاهنا سحبت أبي .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلًا بالإفلاس فأفلست . ومثل هذا كثير من أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام ، أن المقتفي غضب عليه ، وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار فقال : ما يؤخذ مني عشرة ، ولا خمسة ، ولا أربعة . قالوا : من أين لك ؟ قال : إني ظلمت رجلا فألزمته ثلاثة آلاف دينار ، فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته في الباقي .

وأنا أقول عن نفسي : ما نزلت بي آفة ، أو غمّ ، أو ضيق صدر إلا بذنب أعرفه حتى يمكنني أن أقول : هذا بالشيء الفلاني .

فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب ، فقلّ أن يسلم منه فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة[1] .

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه ، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ، ونشرها محرر « بريد الجمعة » عبد الوهاب مطاوع في مقاله تحت عنوان « الضوء الأخير ! » .

دفعني للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك على إحدى الرسائل ويقولان :

إنما الدنيا هبات وعوار مستردّهْ
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدهْ

فأردت أن أروي لك قصتي عسى أن تكون عبرة لغيري . فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج وَلَدَيْه طفلان ، وزوجي ضابط عسكري بالمعاش ، ونعيش في أحد أحياء القاهرة ، ومنذ أن بدأت حياتي مع زوجي ونحن نعيش حياة رغدة ، وقد استعنت طوال حياتي الزوجية على تربية أولادي بمربيات عديدة ، لا أتذكر عددهن من كثرتهن ، ولا عجب في ذلك ، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندي أكثر من شهرين ، ثم تفرّ من قسوة زوجي العدواني بطبعه ، والذي لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم أنها وراثية فيه ، فقد كان يتفننُ في تعذيب أي مربية تعمل عندنا ، ولا أنكر أني شاركته في بعض الأحيان جريمته .

ومنذ خمسة عشر عامًا ، وابنتي في السابعة من عمرها ، وابني في المرحلة الاعداية جاءنا مزارع من معارف زوجي ، ومن أبناء بلدته ، يصطحب معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة ، فاستقبله زوجي بكبرياء وترفع . وقال المزارع

(١) صيد الخاطر .

البسيط : إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهًا في الشهر ووافقنا ، وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء ، فانخرطت الطفلة في البكاء ، وهي تمسك بجلباب أبيها ، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها ، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها ، وانصرف الرجل دامع العينين ، وهو يعدها بما طلبت . وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا ، فكانت تستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما ، ثم تحمل الحقائب المدرسية ، وتنزل بها إلى الشارع ، وتظل واقفة مع ابنتي وابني حتى يحملهما أتوبيس المدرسة ، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت ، وخبز على وشك التعفن ، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن ، ثم تبدأ في ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضر والمسح ، وتلبية النداءات حتى منتصف الليل ، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق في النوم . وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجي ضربا بقسوة شديدة ، فتتحمل الضرب باكية صابرة ، ورغم ذلك فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها ، تفرح بأبسط الأشياء ، وتغني غناءً حزينا خافتا يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهي تغسل الأطباق ، ورغم اعترافي بأني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادمات ، وتفننه في تعذيبهن ، حتى أنه كان أحيانا يختلق الأسباب لضرب أي خادمة تعمل عندنا ، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة ، لطيبتها ، وانكسارها وإخلاصها ، فأناشد زوجي ألا يضربها ، وأقول له : إنها قد كبرت وتعوّدت على طباعنا ، وتحمّلتنا كثيرًا فلا داعي للاستمرار في ضربها ، فكان يقول لي مقهقها : إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها ؛ لأنها قد تعوّدت عليه ، وأن هذا « الصنف » من الناس لا تجدي معه المعاملة الطيبة ، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصبر ، وأتذكر الآن بأنني حين كان العيد يأتي ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين ، بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في العمر تنظف وتغسل دون شفقة ، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدي فستانًا قديمًا لكنه نظيف ، لأنها

كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة ، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا ، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور ، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية ، كما لم تر أمها وإخوتها إلا في ثلاث مناسبات محددة ، الأولى حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن ، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملًا كبيرًا على عودته ، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا ، فإذا به يلقى مصرعه ، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسرًّا حتى لا يراها زوجي ، فتلقى عقابًا على يديه .

والمرة الثانية لم تكن تعطفا منا عليها ، وإنما كانت تخلصًا منها في الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معدٍ ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما ، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها .

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا ، واستقر الحزن والانكسار في قلبها .

وأرجو أن تصدقني يا سيدي ، إذ ليس لديّ ما يبرر أن أدعي شيئًا غير صادق ، وأنا كتبت لك بإرادتي ، إذا قلت أني أبكى الآن كلما تذكرت قسوة عقابنا لها إذا أخطأت أي خطأ ، وكان لابد أن تخطىء ، كأي طفلة ، وكأي إنسان ، فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء ! وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية ، فباتت على الطوى جائعة . ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكي !

وسوف تتساءل ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجلدها من جحيمكم ؟ وأجيبك بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضروات ولم تعد ، فسأل زوجي البواب عنها ، وعرف إنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزّار بنفس الشارع ، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة ، فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها ، واستقبلناها عند عودتها استقبالًا حافلًا بكل أنواع العذاب، فقام زوجي بصعقها بالكهرباء، وتطوّع

ابني بركلها بعنف ، بينما بكت ابنتي وهي تقول لأبيها : حرام يا بابا حرام .. حرام .. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هي أيضًا ، وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها !

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا ، واستسلمت لمصيرها ، واستمر الوضع كما كان عليه ، تخطىء أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت ، فيضربها زوجي ضربًا مبرّحا ، ونخرج في الأجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشيء من اللحم ، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله .. إلخ ثم شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها ، وأنها تتعثر كثيرًا في مشيتها ، فعرضناها على الطبيب فأكّد لنا أن نظرها قد ضعف جدًّا ، وأنه ينسحب تدريجيا ، وأنها لا ترى حاليًا ما تحت قدميها ، أي أنها أصبحت شبه كفيفة ، ورغم ذلك فلم نرحمها ، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن ، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل ، بل وكثيرًا ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضروات ليست طازجة وكثيرًا ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد ، فأشفقت عليها زوجة البواب ، فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضروات لها ، حتى تنقذها من الإهانة والضرب ، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن ، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا ، ولم تعد إليه مرة أخرى ، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة .

ومضت السنوات فأحيل زوجي للتقاعد ، واستقبل حياة الفراغ ، وفقد المنصب والنفوذ - أسوأ استقبال فتضاعفت عصبيته وثوراته ، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل ، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين .

وتخرج ابني في الجامعة وعمل ، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته ، فخطبناها له ، وهي فتاة رائعة الجمال ، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل ، ثم جاءت اللحظة السعيدة ، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر ، وتحوّلت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم ، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة ، واستسلم ابني

وزوجته للأمر الواقع ، وانطفأ الأمل في قلبيهما ، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين ، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى خوفًا من تكرار الكارثة ، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل ؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها تؤكد العوامل الوراثية ، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها ، وشجعناها نحن أيضًا على ذلك على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه وصدمته في طفله الأول .
وحملت زوجة ابني ، وأنجبت طفلة جميلة شقراء نزلت إلى الحياة ، فتوقفت قلوبنا حتى زفّ الطبيب البشري بأنها ترى وتبصر ، كالأطفال العاديين ، وسعدنا بها سعادة مضاعفة ، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا ، وبعد سبعة شهور ، لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه ، فعرضناها على أخصائي عيون للاطمئنان على سلامة عينيها ، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولا ، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء ، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ورأى زوجي ذلك ، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه ، وكره كل شيء ، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب ، وانقبض قلبي ، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدري بقسوة ، وفي ضيقي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان ، وساءلت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها ؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التي أهملنا علاجها وتسببنا في كف بصرها تطاردني في وحدتي ، وتعلق أملي في عفو ربي عما جنينا في أن أجد هذه الفتاة ، وأكفر عما فعلنا بها ، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها ، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد ، فذهبت إليها وأحضرتها لتعيش معي ما بقي لي من أيامي ، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالي عنها وسعيي إليها لإعادتها ، وحفظت العشرة التي لم نحفظها ، وعادت معي تتحسس

الطريق وأنا أمسك بيدها . وفرحت بسماع صوت ابنتي الشابة التي طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها وصباها ، وبسماع صوت ابني الذي عرف الهمّ طريقه إلى قلبه ، واستقرت الفتاة معنا ، وأصبحت أرعاها بل وأخدمها هي وحفيديّ الكفيفين .. وأملي ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان ، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم : إن الله حيّ لا ينام ، فلا تقسوا على أحد فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين ، وتندمون على ما فعلتم في قوتكم وجبروتكم ..

هذه هي قصتي يا سيدي التي دفعني بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك لأن أرويها لك ، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

ثم رد المحرر عبد الوهاب مطاوع على هذه معلقًا :

وهكذا كان الجزاء دائمًا من جنس العمل ، ومع ذلك فما أكثر الخطايا والآثام ، وما أقل الاعتبار .

وأخرى مثلها من الواقع عن رجل كفيف رأس من رءوس المبتدعة في قرية من محافظتنا ، لا همّ عنده إلا محاربة السنة جهلًا منه وعنادًا .

تواترت أقوال أهل قريته أن هذا الرجل كُفّ بصره في سن متأخرة ، وأنه كان يذهب إلى الموالد ، ويمزح مع إخوانه في شبابه ، ويرميهم بالطعام في وجوههم . وكان شابًا جلدًا ، وكانت أمه تعمل بتجارة البيض وجمعه من القرى ، وهي كفيفة ، وتحتاج إلى مساعدته ، تستند عليه ، ويُريها الطريق ، لأنه كان سليم البصر ، فكان يهزأ بها ويأتي بها في الطريق ويوهمها بأن حفرة تصادفها في الطريق ، ويأمرها بالوثوب فتقفز المسكينة فتقع على الأرض ، فدعت عليه ، فكف بصره جزاءً وفاقًا والجزاء من جنس العمل .

ومن الجزاء من جنس العمل في هذا الباب ما رواه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء عن طارق بن زياد ومولاه موسى بن نصير - رحمهما الله :

---

(١) جريدة الأهرام - بريد الجمعة الصفحة ١٦ تاريخ ١٥ / ١ / ١٩٩١ .

فقد كان طارق بن زياد مولى لموسى بن نصير ، وكان أميرًا على طنجة بأقصى المغرب ، فبلغه اختلاف الفرنج واقتتالهم ، وكاتبه صاحب الجزيرة الخضراء ليمده على عدوه ، فبادر طارق وعَدّى في جنده ، وهزم الفرنج ، وافتتح قرطبة ، وقتل صاحبها لذريق ، وكتب بالنصر إلى مولاه ، فحسده على الانفراد بهذا الفتح العظيم ، وتوعَّده ، وأمره ألَّا يتجاوز مكانه ، وأسرع موسى بجيوشه فتلقاه طارق ، وقال : إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك ، فأقام موسى ابن نصير بالأندلس سنتين يغزو ويغنم وقبض على طارق ، وأساء إليه ، ثم استخلف على الأندلس ولده عبد العزيز بن موسى .

قال الذهبي عن موسى بن نصير : استخلف ابنه بأفريقية ، وأخذ معه مائة من كبراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدم مصر في هيئة ما سُمِع بمثلها ، فوصل العلماء والأشراف ، وسار إلى الشام ، فبلغه مرض الوليد ، وكتب إليه سليمان يأمره بالتوقف ، فما سمع منه ، فآلى سليمان إنْ ظفر به ليصلبنه، وقدم قبل موت الوليد ، فأخذ ما لا يحد من النفائس، ووضع باقيه في بيت المال ، وقُوِّمت المائدة بمائة ألف دينار .

وولي سليمان فأهانه ، ووُقِّف في الحر - وكان سمينا - فغشي عليه . وبقي عمر بن عبد العزيز يتألم له ، فقال سليمان : يا أبا حفص ! ما أظن إلا أنني خرجت من يميني[1] .

وجاء في سير أعلام النبلاء ، عن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، عمّ السفّاح المنصور :

كان بطلًا شجاعًا مهيبًا ، جبارًا عسوفًا ، سفاكًا للدماء . به قامت الدولة العباسية . سار في أربعين ألفًا أو أكثر ، فالتقى بالخليفة مروان بقرب الموصل فهزمه، ومزّق جيوشه، ولجّ في طلبه، وطوى البلاد حتى نازل دار الملك دمشق، فحاصرها أيامًا ، وأخذها بالسيف .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦- ٥٠٢) .

وقتل بها إلى الظهر نحوًا من خمسين ألف مسلم من الجند وغيرهم، ولم يرقب فيهم إلّا ولا ذمة ، ولا رعى رحمًا ، ولا نسبًا . ثم جهّز في الحال أخاه داود بن علي في طلب مروان ، إلى أن أدركه بقرية بوصير من بلاد مصر ، فبيّته ، فقاتل المسكين حتى قُتل . وهرب ابناه إلى بلاد النوبة ، وانتهت الدولة الأموية .

ولما مات السفّاح ، زعم عبد الله أنه وليّ عهده ، وبايعه أمراء الشام ، وبويع المنصور بالعراق ، وندب لحرب عمه صاحب الدعوة أبا مسلم الخراساني ، فالتقى الجمعان بنصيبين ، فاشتد القتال وقتلت الأبطال ، وعظم الخطب ، ثم انهزم عبد الله في خواصه ، وقصد البصرة فأخفاه أخوه سليمان مدة ، ثم ما زال المنصور يلح حتى أسلمه ، فسجنه سنوات ، فيقال : حَفَر أساس الحبس ، وأرسل عليه الماء ، فوقع على عبد الله في سنة سبع وأربعين ومائة . فالأمر لله[1].

والجزاء من جنس العمل .

وكان سالم بن حامد نائب دمشق للمتوكل ، كان ظلومًا عسوفًا ، شدّ عليه طائفة من أشراف العرب ، فقتلوه بباب دار الإمارة يوم جمعة سنة بضع وثلاثين ومائتين ، فبلغ المتوكل فتنمّر ، وقال : مَنْ للشام في صولة الحجّاج ؟ فندب أفريدن التركي ، فسار في سبعة آلاف فارس . ورخص له المتوكل في بذل السيف ضحوتين ، وفي نهب البلد . فنزل ببيت لِهْيا[2]. فلما أصبح قال : يا دمشق ، أيش يحلُّ بك اليوم مني ، فقُدمت له بغلة دهماء ليركبها ، فضربته بالزوج على فؤاده فقتلته ، ورد عسكره إلى العراق[3] .

وانظر إلى جزاء الظالمين وكيف كان من جنس عملهم ، يلوح واضحًا جليًّا في سيرة ومصير الخليفة العباسي القاهر بالله .

قال الذهبي :

كان فيه شر وجبروت وطيش ، بايعوه بعد المقتدر ، فصادر حاشية أخيه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦ / ١٦١ - ١٦٢) . (٢) قرية بغوطة دمشق .

(٣) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٦٢) .

وعذّبهم ، وضرب أم المقتدر بيده ، وهي عليلة ، ثم ماتت معلقة بحبل ، وعذّب أم موسى القهرمانة ، وبالغ في الإساءة ، فنفرت منه القلوب ، وقُبض على شيخ الحنابلة البَرْبَهَاري . ونهب القاهر دور مخالفيه ، وطيّن على ولد أخيه المكْتَفي بين خيطين ، ونادى بتحريم الغناء والخمر ، وكسر الملاهي ، وهو مع ذلك يشرب المطبّوخ والسلاف ، ويسكر ويسمع القينات . وقتل أبا السرايا ابن حمدان ، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر ، وطُمّت ؛ لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة . ثم خُلع وأكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء .

قال الصولي : كان أهوج ، سفاكًا للدماء ، كثير التلوّن ، قبيح السيرة ، مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل ، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنسانًا .

قال المسعوديّ : أخذ من مؤنس وأصحابه أموالًا كثيرة . فلما خلع طُولب بها فأنكر. وقف يومًا بالجامع بين الصفوف، وعليه جبة بيضاء، وقال: تصدقوا عليّ فأنا مَنْ قد عرفتم[١] .

نهب أموال الناس قسرا ، فآلت به الحال أن صار يستجدي الناس جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه ، خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[٢] .

قال المناوي :

يُكلف نقل ما ظلم به إلى أرض المحشر، وفيه تحريم الظلم وتغليظ عقوبته، وإمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر، وأن مَنْ ملك أرضًا ملك سفلها إلى منتهى الأرض، وله منع غيره من حفر سرداب أو بئر تحتها وأن مَنْ ملك ظاهر الأرض ملك باطنها[٣].

وقال ﷺ : « مَنْ أخذ من الأرض شيئًا ظلمًا ، جاء يوم القيامة يحمل

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٩٨-١٠١).
(٢) رواه البخاري عن ابن عمر .
(٣) فيض القدير (٦/٤١) .

ترابها إلى المحشر »[١] .

قال المناوي في غاصب الأرض :

« يهوي به إلى أسفلها بالأخذ غصبًا لتلك الأرض . ويجعل كالطوق في عنقه على وزنه ﴿ سيطوّقون ما بخلوا به ﴾ [آل عمران : ١٨٠] ويعظم عنقه ليسعَ أو يطوّق إثم ذلك ويلزمه لزوم الطوق ، أو يكلف الظالم جعله طوقا ولا يستطيع ، فيُعذب بذلك ، فهو تكليف تعجيز للإيذاء لا تكليف ابتداء للجزاء ، ومثله غير عزيز كتكليف المصور نفخ الروح فيما صوّره ، فمن اعترضه بأن القيامة ليست بزمن تكليف لم يتأمل ، أو أن هذه الصفات تتنوع لصاحب هذه الجناية بحسب قوة هذه المفسدة وضعفها ، فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بهذا[٢] .

وقال ﷺ : « من أخذ من طريق المسلمين شيئًا جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين »[٣] .

وقال ﷺ : « من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين »[٤] .

وقال ﷺ : « أيما رجل ظلم شبرًا من الأرض كلّفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين ، ثم يُطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس »[٥] .

وقال ﷺ : « لا يأخذ أحدٌ شبرًا من الأرض بغير حقه ، إلّا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة »[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير عن يعلى بن مرّة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٢ ، وتخريج الترغيب رقم ٥٤٣ .

(٢) فيض القدير (١ / ٤١ - ٤٢) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن الحكم بن الحرث ، وصححه السيوطي ، قال المناوي : قال ابن حجر : وإسناده حسن . وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني : فيه محمد بن عقبة السدسي وثقه ابن حبان ، وضعّفه أبو حاتم ، وتركه أبو زرعة .

(٤) رواه الشيخان وأحمد عن عائشة ، وعن سعيد بن زيد .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن يعلى بن مرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١٩ ، وتخريج المشكاة ٢٩٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٠ .

(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: « من ضرب بسوطٍ ظلمًا اقتص منه يوم القيامة »(١) .

وإن كان المضروب عبده .

٢٣ - تخويف أهل المدينة

إذا ذُكرت هذه الكبيرة ذكر معها يزيد بن معاوية ، ومسلم بن عقبة المزني الذي سماه السلف مسرف بن عقبة ، وذكر معها موقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، فإن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية ، وولوا على قريش عبد الله بن مطيع ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ، فانتدب يزيد مسلم بن عقبة وأرسل معه عشرة آلاف فارس ، وقيل : اثنا عشر ألفا وخمسة عشر ألف رجل . فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين ، وَلّني عليهم أَكْفِك . وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة . فقال يزيد : لا ! ليس لهم إلا هذا الغشمة(٢) ، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم ، وعفوي عنهم مرة بعد مرة . فقال النعمان: يا أمير المؤمنين! أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. وقال له عبد الله بن جعفر : أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم ؟ قال : إن فعلوا فلا سبيل عليهم . وقال يزيد لمسلم بن عقبة : ادع القوم ثلاثا ، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ، وإلّا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا ظهرت عليهم ، فأبح المدينة ثلاثًا ، ثم اكفف عن الناس وقد كان ..

فقد اقتتلوا قتالًا شديدًا ثم انهزم أهل المدينة إليها . وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان ، منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل ، وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ، ومحمد ابن عمرو بن حزم ، وقد مرّ به مروان وهو مجندل ، فقال : رحمك الله فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود . ثم أباح مسلم بن عقبة -

(١) صحيح : رواه البخاري في الأدب ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٠ ، وقال الهيثمي والمنذري : إسناده حسن .

(٢) الظالم .

قبّحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد - لا جزاه الله خيرا - وقتل خلقًا من أشرافها وقرّائها ، وانتهب أموالًا كثيرة منها ، ووقع شر عظيم ، وفساد عريض . فكان ممن قتل بين يديه صبرًا معقل بن سنان ، ونتف لحية عمرو بن عثمان بن عفان . وأباح المدينة ثلاثة أيام ، يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الأموال ، فأرسلت إليه سعدى بنت عوف المرية تقول له : أنا بنت عمّك ، فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا ، فقال لأصحابه : لا تبدءوا إلا بأخذ إبلها أولا . وجاءته امرأة فقالت : أنا مولاتك وابني في الأساري ، فقال : عجّلوه لها ، فضربت عنقه ، وقال : أعطوها رأسه ، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك؟ ، ووقعوا على النساء حتى قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج فالله أعلم .

قال هشام بن حسان : ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة[1] من غير زوج . وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري .

وجيء بسعيد بن المسيب ، فقال له مسلم : بايع ! فقال : أبايع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله ، ولما انهزم أهل المدينة صاح النساء والصبيان ، فقال ابن عمر : بعثمان ورب الكعبة . سُئل الزهري كم كان القتلى يوم الحرة ، قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالي ، وممن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف .

لما قتل أهل الحرّة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس يسمع :

والصائمون القانتو ... ن أولو العبادة والصلاحِ
المهتدون المحسنو ... ن السابقون إلى الفلاحِ

---

(١) هذه الحرة هي حرة واقم ، إحدى حرتي المدينة المنورة ، وهي تعرف اليوم بالحرة الشرقية .

مـاذا بواقـم والبقيـ ـع من الجحاجحة[١] الصباحِ
وبقـاعِ يثـرب ويحهـ ـنَّ من النـوادب والصيـاحِ
قُتـل الخيـارُ بنـو الخيـا ر ذوي المهابـة والسمـاحِ

فقال ابن الزبير ، يا هؤلاء ، قتل أصحابكم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ودخل مسلم بن عقبة المدينة ، فدعا الناس للبيعة على أنهم خول[٢] ليزيد بن معاوية ، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[٣] .

فكانت بنو أمية أول من بايعه . ثم دعا بني أسد بن عبد العُزَّى ، وكان عليهم حنقًا - إلى قصره ، فقال : تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين ولمن استخلف بعده على أن أموالكم ، وأنفسكم خول له يقضي فيها ما يشاء .

وقال بعضهم : قال ليزيد بن عبد الله خاصة : بايع على أنك عبد العصا . فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة : أيها الأمير إنما نحن نفر من المسلمين ، لنا ما للمسلمين ، وعلينا ما عليهم ، أبايع لابن عمي وخليفتي وإمامي على ما يبايع عليه المسلمون . فقال : الحمد لله الذي سقاني دمك ، والله لا أُقِيلُكَهَا[٤] أبدًا ، لعمري إنك لطعّان وأصحابك على خلفائك . فقدمه فضرب عنقه[٥] .

وسار مسلم بن عقبة أول المحرم سنة أربع وستين إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير فلما بلغ ثنية هرشا بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم : فقال : إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير

---

(١) الجحاجحة : الأسياد .

(٢) خدم وعبيد .

(٣) البداية والنهاية (٨/٢٢٢-٢٢٦) .

(٤) لن يصفح عنه .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد - القسم المتمم لتابعي أهل المدينة - دراسة د . زياد منصور ص ١٠٤ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة .

السكوني ، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعا به فقال : انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به . ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز[١] ابن الزبير قبل ثلاث ، ثم قال : اللهم ، إني لم أعمل عملًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أحب إليّ من قتل أهل المدينة ، وأجزى عندي في الآخرة . وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي ، ثم مات - قرحه الله - ودفن بالمسلك .

ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه ، فما متعهما الله بشيء ممّا رَجَوْه وأمّلوه ، بل قهرهم القاهر فوق عباده ، وسلبهم الملك ، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء[٢] .

عن جعفر بن خارجة ، قال : خرج مُسَرِّف من المدينة يريد مكة ، وتبعته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زَمْعة يسير وراء العسكر يومين أو ثلاثة ، ومات مسرف فدفن بثنية المشلل ، وجاءها الخبر فانتهت إليه ، فنبشته ثم صلبته على ثنية المشلل[٣] جزاءً وفاقًا .

قال ابن كثير :

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشًا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام . وهذا خطأ كبير فاحش ، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ، ودوام أيامه من غير منازع ، فعاقبه الله بنقيض قصده ، وحال بينه وبين ما يشتهيه ، فقصمه الله قاصم الجبابرة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن**

---

(١) يقابل .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٧ - ٢٢٨) .

(٣) الطبقات الكبرى - القسم المتمم لتابعي المدينة ص ١٠٥ .

أخذه أليم شديد ﴾[(١)] [هود : ١٠٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا يكيد أهل المدينة أحد ، إلا انماع[(٢)] كما ينماع الملح في الماء »[(٣)] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، فقد أخاف ما بين جنبي »[(٤)] .

وقال ﷺ : « من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله ، كما يذوب الملح في الماء »[(٥)] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، أخافه الله »[(٦)] .

والجزاء من جنس العمل .

هذا لم يرد نظيره لبقعة سواها ، فهم كالماء صفاءً ، يعاقب الله من أراد بسوء في الآخرة بأن يذيبهم في النار ، ولا يمهلهم الله في الدنيا ولا يمكن سلطانهم ، فمسلم بن عقبة هلك في منصرفه عنها ، ثم هلك يزيد مرسله على أثر ذلك .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٥) .

(٢) ذاب .

(٣) رواه البخاري عن سعد .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٤ ، ورواه البخاري في التاريخ .

(٥) رواه أحمد ومسلم ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، ومسلم عن سعد .

(٦) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن سعد ، ورواه ابن النجار ، وأحمد ، والحربي ، والنسائي، وابن عساكر، والدولابي عن السائب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٣ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٣٠٤ .

٢٤ - سب الصحابة

قال ﷺ : « لعن الله من سب أصحابي »[(١)] .

وقال ﷺ : « من سب أصحابي فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين »[(٢)] .

وقال ﷺ : « لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مدّ[(٣)] أحدهم ولا نصيفه »[(٤)] [(٥)] .

مَنْ سبّ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه طرده الله من رحمته ، وأبعده عن جنته ، وأورثه الذلة والهوان في الدنيا قبل الآخرة ، وهل يسبّ من أتى القرآن والإنجيل والتوراة بوصفهم والثناء عليهم .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٨٧ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦١ .

(٣) مكيال قدره نصف قدح مصري أو رطل وثلث حجازي .

(٤) نصفه .

(٥) رواه أحمد ، والشيخان ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي سعيد ، ورواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .

ولنأتِ إلى واقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وبين أنس بن مالك - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ وكيف أراد الحجاج ذل أنس فعاد الذل والشنار عليه ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أُنيس[١] يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة[٢] . فقال أنس : أياي يعني الأمير أصلحه الله ؟

قال : إياك أعني صك الله سمعك . قال أنس . إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت . ولا أي ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبا ، وشفق عجبًا ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك .

أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجرا ، وأسمعني نكرا ، ولم أكن لذلك أهلًا ، فخذ لي على يديه ، فإني أمتّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[٣] .

وفي رواية أخرى : كتب أنس إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه :

ولو أن رجلًا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا

---

(١) للتصغير والتحقير .

(٢) الصّمغة : شيء يسيل من الشجر ويجمد عليها .

(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٣٩) .

له ذلك ، ولو أن رجلًا خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود ، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ورأيته ، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضرّ بي وفعل وفعل .

قال محمد بن الزبير : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ، وبلغ به الغضب ما شاء الله[1] .

فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر – وكان مصادقًا للحجاج – فقال له : دونك كتابيّ هذين ، فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه ، وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة ، قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أُمتك[2] .

ولما دخل إسماعيل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاه ، فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغيرَ لون الحجاج وخاف ، وقال : ما أتيتني به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبًا عليك ، ومنك بعدًا ، قال : فاستوى الحجاج جالسًا مرعوبًا ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار[3] ، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضّه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة[4] .

وكان في الطومار :

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ٦٩) .

(٢) أُمتك : جاريتك .

(٣) الطومار : جمعها طوامير : الصحيفة .

(٤) آبدة : جمعها أوابد : الداهية الخالدة الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف .

أما بعد : فإنك عبد طمّت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدًّا[١] ، وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدمًا ، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى ، فلعنك الله من عبد أخفش[٢] العينين ، منفوص الجاعرتين[٣]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل[٤]، يابن المستفرية بعجم[٥] الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب ، والصقر الأرنب ، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافًا منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلًا خدم عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم لعظمته وشرّفته وأكرمته وأحبّته ، بل لوْ رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سرّه ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاضٍ ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون[٦] .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل ، هذا في الدنيا ، فكيف في الآخرة ؟! رحمك الله يا عبد الملك ، وكافأك بالجنة .

---

(١) قاسية شديدة .

(٢) ضعيف .

(٣) مضرب الدابة .

(٤) موارد الشرب على الطريق .

(٥) بعود .

(٦) البداية والنهاية (٩ / ١٤٠ - ١٤١) .

وانظر أخي إلى عمران بن حِطّان الفاجر الخارجي يقول في رثاء عبد الرحمن ابن ملجم قاتل علي ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إنه أشقى الآخرين » .

يقول عمران :

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

فردّ عليه عبد القاهر البغدادي :

يا ضربة من كفور ما استفاد بها ... إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه دينًا ، وألعن مَنْ ... يرجو له أبدًا عفوًا وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم ... أخفهم عند رب الناس ميزانا

أما كثير عزة الرافضى فيقول :

برئت إلى الإله من ابن أُرْوَى ... ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عُمَرٍ برئت ومن عتيق ... غداة دعا أمير المؤمنينا

فرد عليه عبد القاهر البغدادي :

بَرِئْتَ من الإله ببغض قوم ... بهم أحيا الإلهُ المؤمنينا
وماضرّ ابن أروى منك بُغض ... وبُغض البرِّ دينُ الكافرينا
أبو بكر لنا حقًّا إمامٌ ... على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عُمر ، بحقٍّ ... يقال له : أمير المؤمنينا

فما ظنك بالشيعة الإمامية الإثنا عشرية الذين يقولون : اللهم العن صنمي قريش جبتيهما وطاغويتهما أبا بكر وعمر ، والعن ابنتيهما حفصة وعائشة .

ويقولون عن عمر : إنه كان به داء لا يشفى إلا بماء الرجال .

ويقولون عن عثمان : العبد اللكع .

بل ويكفرون الصحابة جميعهم إلا أربعة .

ولذا كفّرهم الإمام مالك بآخر آية من سورة الفتح .

بشار بن بُرْد

وهناك أعمى أعمى الله بصيرته وبصره ، كفر الصحابة أجمعين بل وكفّر

الأمة ، وهو بشار بن برد شاعر الإباحية الذي شبّب بالنساء .

يقول عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق في ذكر غلاة الرافضة من الكاملية : هؤلاء أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل ، وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي ، وكَفَر عليّ بتركه قتالهم ، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروي أنه قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال : كفروا ، فقيل له : فما تقول في علي ؟ فتمثل بقول الشاعر :

وما شر الثلاثة أمَّ عمرٍو بصاحبك الذي لا تصبحينا

وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالته في تكفير الصحابة وتكفير علي معهم ضلالتين أخريين .

إحداهما : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

الثانية : قوله بتصويب إبليس في تفضيل النار على الأرض .

واستدلوا على ذلك بقول بشار في شعر له :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانتِ النارُ[1]

فردّ عليه صنوان الأنصاري في قصيدته التي قال فيها :

زعمت بأن النار أكرمُ عُنصرا وفي الأرض تحيا في الحجارة والزَّنْدِ
وفيها مقام الحل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلدِ
فيابن حليف الشؤم واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجوا أبا بكر ، وتخلع بعده عليًّا ، وتغزو كل ذاك إلى بُرْدِ
كأنك غضبان على الدين كله وطالب ذَحْلٍ لا يبيت على حقدِ
تواثب أقمـارًا وأنت مُشَوَّه وأقرب خلق الله من نسب القردِ

هذا الذي كفّر الأمة قال فيه حماد عجرد :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القردُ

---

(١) قال عمر بهاء الأميري :

إبليس من نار وآدم طينة والنار لا تسمو سمو الطين
النار تفنى ذاتها ومحيطها والطين للإنبات والتكوين

اتهم بالزندقة ، فضربه المهدي سبعين سوطًا ليقر ، فمات منها ، ويقال : إنه غرق .

يقول عبد القاهر البغدادي: وقد فعل الله به ما استحقه ، فأمر به المهدي حتى غرق في دجلة، ذلك له خزي في الدنيا، ولأهل ضلالته في الآخرة عذاب أليم[1].

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية ، وتنويعها عليهم ، بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم...**﴾ إلى قوله : ﴿ **يَظْلمون** ﴾ [العنكبوت : ٣٨-٤٠] .

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم ، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها ؛ اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها ، لتتم المناسبة ، ويكمل الشبه ، وهذا غاية الحكمة ، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم ، كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية ، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم ، بل هم أخف الناس عقولًا ، وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا ، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين ، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ، ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه ، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا ، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ، ويقوم الإنسان عن رجيعه ، فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم ، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم،فعادوهم وتبرءوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٠ / ١٥٣ / ١٥٤ ، الفرق بين الفرق ٥٤ - ٥٦ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٦ - ٢٧ .

من النصارى واليهود والمشركين ، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار ، وصرحوا بأنهم خير منهم ، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير ، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا ، فأكثر من أن تذكر هاهنا ، وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتابًا[١].

٢٥ - الغيبة والوقيعة في الأعراض

قال ﷺ : « إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق »[٢].

وقال ﷺ : « لما عَرَج لي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون[٣] وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »[٤] .

قال المناوي :

قال الطيبي : لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات ، جعلها جزاء من يقع ، إشعارًا بأنهما ليسا من صفة الرجال ، بل هما من صفة النساء في أقبح حالة وأشوة صورة .

وقال الغزالي :

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ص٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) صحيح : رواه الإمام أحمد وأبو داود عن سعيد بن زيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٢٢٠٣ .

(٣) يجرحونها ويشقونها .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٠ ، وفي صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

يحشر الممزق لأعراض الناس كلبًا ضاريًا ، والشره لأموالهم ذئبًا ، والمتكبر عليهم بصورة نمر ، وطالب الرياسة بصورة أسد ، وردت به الأخبار ، وشهد به الاعتبار وذلك أن الصور في هذا العالم غالبا على المعاني ، وهذا وعيد شديد على الغيبة .

قال في الأذكار : والغيبة والنميمة محرمتان بإجماع المسلمين[١] .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

قال الفخر الرازي :

الحكمة في هذا التشبيه هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك أن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من هذا العاقل أكل لحوم الناس ، لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم .

ولما كان القول في الوجه يؤلم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فأكل لحم الأخ وهو ميت أيضًا لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحسّ بأكل لحمه لآلمه[٢] .

قال القشيري : ليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق .

وقال أبو حيان: قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: الغيبة إدام كلاب الناس[٣].

هذا المشهد الذي ذكر في القرآن تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية .

ومن حديث أبي هريرة رفعه : « من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرِّب له يوم القيامة فيقال له : كله ميتا كما أكلته حيا . فيأكله ويكلح ويصيح »[٤] والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٢٩٨) . (٢) مفاتيح الغيب (١٤ / ٣٩٢) .
(٣) نظم الدرر (١٨ / ٣٧٩) .
(٤) قاله ابن حجر في الفتح (١٠ / ٤٨٥) كتاب الأدب ، باب الغيبة .

قال ابن حجر : وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ ، فهاجت ريح منتنة ، فقال النبي ﷺ : « هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين »[1] .

٢٦ - تتبع عورات المسلمين

قال ﷺ : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله »[2] .

وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّ من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته »[3] .

والجزاء من جنس العمل .

أخي ، حاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس عليها حسيب غيرك .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك .

وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وكيف يعيب العورَ مَنْ هو أعور ..

قال شيخ الإسلام الأنصاري : وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك .

قال ابن قيم الجوزية : يحتمل أن يريد به : أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها . وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ :

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٨٥) .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦٢ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي ، والترمذي وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦١ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

« من عَيَّـر أخاه بذنب لم يمت قبل أن يفعله »[1] .

قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث : بذنب قد تاب منه .

إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه . وأشد من معصيته ، لما فيه من صَوْلة الطاعة ، وتزكية النفس ، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب . وإن أخاك باء به ، ولعل كَسْرَته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى ، والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب أنفع له ، وخير من صولة طاعتك ، وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر[2] .

وقد بلغ بالسلف توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه ؛ لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع[3].

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سَخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبًا .

وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمّل عيّابًا ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب ، وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .

قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلًا ورعًا أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريض يشغله عن وجعِ الناس كلهم وجعُهْ

---

(١) رواه الترمذي عن معاذ بن جبل ، وقال : حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل . وهو منقطع .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) والعامة تقول في أمثالها : من عيّر أخاه بلبن الكلبة ، لا يموت إلا إذا رضعها .

وقال آخر :

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا فيهتكَ اللهُ سترًا عن مساويكَا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ولا تعب أحدًا منهم بما فيكَا[(١)]

قال الذهبي :

حُبس محمد بن سيرين بدين ركبه . قال المدائني : كان سبب حبسه أنه أخذ زيتا بأربعين ألف درهم ، فوجد في زِقٍّ منه فأرة ، فظن أنها وقعت في المعصرة ، وصب الزيت كله . وكان يقول : إني ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة . قال : فكانوا يظنون أنه عيَّر رجلًا بفقر[(٢)] .

وعن ابن سيرين قال : قلت مرة لرجل : يا مفلس ، فعوقبت[(٣)] .

قال إبراهيم بن هانيء : رأيت أبا داود يقع في يحيى بن معين ، فقلت له : تقع في مثل يحيى ؟ فقال : مَنْ جَرّ ذيول الناس ، جرّوا ذيله[(٤)] .

سمع أعرابي رجلًا يقع في الناس ، فقال : قد استدللتُ على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس ؛ لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها .

قال الشاعر :

ويأخذ عَيْبَ الناس من عَيْبِ نفسه مُرادٌ لعمري ما أراد قريبُ

وقال آخر :

وأجرأ منْ رأيت بظهر غيب على عيب الرجال أخو العيوب

بعد موقعة الجمل يقال : إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في هودج عائشة - رضي الله عنها - فقال : والله ما أرى إلا حميراء . فقالت : هتك الله سترك ، وقطع يدك ، وأبدى عورتك . فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عريانًا في خربة من خرابات الأزد . اهـ من البداية والنهاية .

---

(١) تفسير القرطبي (٩ / ٦١٤٥، ٦١٤٧، ٦١٤٨) طبع دار الشعب .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٦) ، الحلية (٢ / ٢٧١) .
(٤) سير أعلام النبلاء (١١ / ٩٤) .

وقال آخر :

فكل عيّاب له مَنْظَرٌ مُشْتَمِلُ الثوب على عَيْبِ

كان يقال : ظلم منك لأخيك أن تقول أسوأ ما تعلم فيه .

قال أبو عاصم النبيل : لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا دين لهم[1] .

٢٧ - الطعن في الأنساب وجحدها وإلصاق ما ليس منها بها

قال رسول الله ﷺ : « كفر بالله تبرؤ من نسب وإن دق »[2] .

وقد قيل : لا أعلم نسبًا سلم من الطعن إلا نسب المصطفى ﷺ .

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله تعالى منه ، وفضحه على رءوس الأولين والآخرين يوم القيامة »[3] .

قال المناوي :

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٩٩ - ٤٠٠) .

(٢) حسن : رواه البزار عن أبي بكر - رضي الله عنه - وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٣٦١ .

(٣) رواه : أبو داود والنسائيّ ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم في مستدركه وصححه عن أبي هريرة قال ابن حجر في التخريج صححه الدارقطني في العلل مع اعترافه بتفرد عبد الله بن يونس عن سعيد المقبرى ، وأنه لا يعرف إلا به ، وقال في الفتح بعد ما عزاه لأبي داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن يوسف: حجازي ، ما روى عنه سوى يزيد بن الهاد .

« أيما امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم » بأن تنسب لزوجها ولدها من غيره « فليست من الله في شيء » أي من الرحمة والعفو أو لا علاقة بينها وبينه ، ولا عندها من حكم الله وأمره ودينه شيء كأنه قال : هي بريئة من الله في كل أمورها ، ولن يدخلها الله جنته مع السابقين المحسنين بل يؤخرها ويعذبها ما شاء قال:« وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه » أي وهو يرى أنه منه ، ويتحقق ذلك ، كأنه يشاهد ذلك عيانًا وهو ينكره ، وعبّر بالجحود ليفيد مع الوعيد على النفي الوعيد على قذف الزوجة « احتجب الله تعالى منه » أي منعه رحمته وحرمه ، وهذا وعيد غليظ إذ لا غاية في النعيم أعظم من النظر إليه تقدس ، وهو الغاية القصوى، فويل لمن لم ينلها « وفضحه على ...» بجحوده ولده ، وهو يعلم أنه منه ، وإظهار كذبه على زوجته ، وقد ورد الوعيد الشديد في حق من انتفى من ولده في عدة أخبار ، منها خبر وكيع عن ابن عمر رفعه « من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا ، فضحه الله يوم القيامة »[(١)] ، وفيه الجرّاح والد وكيع مختلف فيه[(٢)] .

وقال ﷺ : « كفر بامرىءٍ ادّعاء نسبٍ لا يُعرف ، أو جحده ، وإنْ دقَّ »[(٣)] .

٢٨ - النياحة

قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت »[(٤)] .

(١) والجزاء من جنس العمل .
(٢) فيض القدير (٣ / ١٣٧) .
(٣) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمرو ، ورواه أحمد ، والطبراني في الأوسط والصغير وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٦٢ .
(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لا يتركونهن؛ الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »(١) .

وقال ﷺ : « صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ، ورنّة عند مصيبة »(٢) .

والرنة : هي صرخة النائحة .

وقال ﷺ : « لعن الله الخامشة وجهها ، والشاقّة جيبها ، والداعية بالويل والثبور »(٣) .

وقال ﷺ : « كل نائحة تكذب إلا أم سعد »(٤) .

أم سعد بن معاذ قالت لما حملوا نعشه :

ويل أم سعد أضرّ أمه وجدًا   وسيدًا سدّ به مسدًّا

وقال ﷺ : « أنا بريء ممن حلق ، وسلق ، وخرق »(٥) .

أي حلق شعره عند المصيبة ، ولطم خده وصرخ ، وشقّ ثوبه .

وقال ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب »(٦) .

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري .

(٢) حسن : رواه البزار والضياء عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن سعد عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٣٩ .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي موسى .

(٦) رواه أحمد ، ومسلم عن أبي مالك الأشعري .

وقال ﷺ : « النياحة على الميت من أمور الجاهلية ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت ، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ، ثم يعلى عليها بدروع من لهب النار »(١) .

وقال ﷺ : « أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية ، ليسوا بتاركيها ، الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل الموت جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران ، ودرع من لهب النار »(٢) .

قال المناوي :

« النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام » يعني تُحشر ، ويُحتمل أنها تقام حقيقة على تلك الحال بين أهل النار والموقف ؛ جزاءً على قيامها في النياحة . « يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » أي يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها ، والدرع قميص النساء ، والقطران دهن يدهن به الجمل الأجرب ، فيحترق لحدته وحرارته ، فيشتمل على لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في الجلد واللون الوحش ونتن الريح ، جزاءً وفاقًا ، فخُصّت بذلك الدرع ؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب ، وبلون القطرانِ لكونها كانت تلبس السواد في المآتم .

قال ابن العربي : وهذا الخبر ونحوه من الأخبار الوعيدية مجرية على الإطلاق في موضع ، ومقيدة بالمشيئة في آخر فيحمل المطلق على المقيد ضرورة ، إذ لو حمل على إطلاقه بطل التقييد ولم يكن له فائدة(٣) .

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٨٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم عن أبي مالك الأشعري، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٨ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٩٣) .

٢٩ - البغـي

قال تعالى : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ [يونس : ٢٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب هو أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم » .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لو بغى جبل على جبل ، لدُكَّ الباغي منهما .

أخذه الشاعر فقال :

لـو بغى جبـلٌ يومًا على جبلٍ لـدُكَّ منـه أعاليه وأسفَلُـهُ

وقال آخر :

ذر البغي إن البغي موبق أهله ولم يَعْدمِ الباغي من الناس مصرعَا

قال بعض الحكماء : البغي من فروع الحسد ، وأقدم الناس على البغي مَنْ جهل المعرفة بسرعة نصر الله لمن بغى عليه .

وقالوا : ثلاثة عائدة على فاعلها : البغي والمكر والنكث .

وقال يزيد بن الحكم :

إن الأمـور دقيقَهَـا مما يهيجُ به العظيمُ
والبغـي يصـرع أهلَهُ والظلـم مرتعه وخيـم

٣٠ - الفخر بالأحساب والأنساب

قال رسول الله ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدّ تسعة فمَنْ أنت لا أمَّ لك ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ، فأوحى الله إلى موسى أنْ قل لهذين المنتسبَيْن: أمّا أنت أيها

المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة »[١] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « لينتهيَنّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحمُ جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجُعَل[٢] الذي يُدَهْدِهُ[٣] الخرء[٤] بأنفه ، إن الله أذهب عنكم عِبيّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس كلهم لآدم ، وآدم خلق من التراب »[٥] .

وفي رواية أخرى : « ليدعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أوْ ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن .

والجزاء من جنس القول والعمل. والعبية : هي الكبر .

٣١ - تكفير المسلمين ولعنهم

قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ باء بها أحدهما »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء قال لأخيه : كافر ؛ فقد باء بها

---

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن أُبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ .

(٢) حيوان كالخنفساء ، يكثر في الأراضي المبتلة .

(٣) يدفعه فيتدحرج .

(٤) البراز .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وأحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٥٨ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وأحمد ، والبخاري عن ابن عمر .

أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلّا رجعت إليه »[١] .

وقال ﷺ : « أيما رجل مسلم أكفر رجلًا مسلمًا ، فإن كان كافرًا ، وإلّا كان هو الكافر »[٢] .

وقال ﷺ : « ما أكفر رجل رجلًا قط إلا باء بها أحدهما »[٣] .

قال المناوي :

« إذا أكفر الرجل أخاه » أي نسبه إلى الكفر ، بأن قال : أنت كافر أو يا كافر أو قال عنه : فلان كافر . « فقد باء » أي رجع . « بها » أي بالمعصية المذكورة حكمًا ، يعني رجع أحدهما بمعصية إكفاره على حد ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** ﴾ [سبأ : ٢٤] .

قال بعضهم : والجزم في هذا الخبر بأنه لابد أن يبوء بها أحدهما بينه قوله في الحديث التالي : « إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » . ومن ثم كانت هذه الرواية في قوة قضية منفصلة أقيم البرهان على صدقها ، بخلاف تلك إذ معناه كل مُكفِّرٍ أخاه ، فدائما إما أن يكفر القائل أو المقول له ، وبرهن على صدق ذلك بأنه إن كان كما قال وإلا كفر القائل[٤] .

والجزاء من جنس القول والعمل .

وكذا اللعن – لعن المسلم – إن لم يكن أهلًا يعود اللعن عليه ، بل لا يجوز لعن المعين وهذا مذهب أهل السنة والجماعة . فهناك فرق بين لعن النوع ولعن العين ، وكفر النوع وكفر العين .

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن عمر .

(٢) رواه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وروواه أبو داود عن ابن عمر .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٢١ .

(٤) فيض القدير (١ / ٢٩٥) .

٣٢ - إسبال الإزار

وهو من الكبر كما مرّ من أحاديث في ذم الكبر .

« إن الله تعالى لا ينظر إلى مسبل إزاره »[(١)] .

«من أسبل إزاره في صلاته خيلاء ، فليس من الله في حل ولا حرام »[(٢)].

« من جر ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[(٣)] .

هذا الذي أسبل إزاره يريد نظر الناس إليه ، ويتيه على الناس ، يعاقبه الله بأن لا ينظر إليه ، وأي ذل فوق هذا !! فعوقب بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل . وقال رسول الله ﷺ : « من وطىء على إزار خيلاء ، وطئه في النار »[(٤)] .

قال المناوي :

يلبس مثل ذلك الثوب الذي كان يرفل فيه في الدنيا ، ويجره تعاظمًا ، في نار جهنم ، ويعذب باشتعال النار فيه جزاءً بما فعل[(٥)] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٥٩ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٨٨ .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن هبيب . قال الألباني : الأصل صهيب تبعا لأصله ، وهو خطأ . انطلى على المناوي فقيده بضم المهملة الرومي ! وحسنه السيوطي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٦٨ .

(٥) فيض القدير (٥ / ٢٣٧) .

٣٣ - لبس الحرير والذهب للرجل

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا[١] .

وقال ﷺ : «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٢].

وقال ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٣] .

قال المناوي :

من لبس الحرير من الرجال جزاؤه أن لا يلبسه فيها ؛ لاستعجاله ما أُمر بتأخيره ووعد به ، فَحُرِمه عند ميقاته ، كوارث قتل مورثه : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وهذا وعيد مقتضٍ لهذا الحكم ، وقد يتخلف لمانع ، وقد دلّت النصوص القرآنية على أن التوبة تمنع لحوق الوعيد ، وكذا الحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، والدعاء ، والشفاعة ، بل وشفاعة أرحم الراحمين لنفسه ولمالك الجزاء إسقاطه[٤].

٣٤ - الشّرب في آنية الذهب والفضة

قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم »[٥] . وزاد في رواية : « إلا أن يتوب » .

وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الفضة، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم »[٦].

---

(١) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٢) رواه مسلم عن ابن الزبير .

(٣) رواه الشيخان وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة .

(٤) فيض القدير (٦ / ٢١٨) .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أم سلمة ، وزاد الطبراني في الكبير : « إلا أن يتوب » .

(٦) رواه الشيخان عن أم سلمة .

وقال ﷺ : «من شرب في إناء فضة، فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم»[١].

وقال ﷺ : « من شرب في إناء من ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم »[٢] .

وقال ﷺ : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، فإنه لهم في الدنيا ، وهو لكم في الآخرة »[٣] .

قال الحافظ في الفتح :

« إنما يجرجر » بضم التحتانية وفتح الجيم وسكون الراء ثم جيم مكسورة ثم راء ، من الجرجرة وهو صوت يردده البعير في حنجرته إذا هاج نحو صوت اللجام في فك الفرس ، قال النووي : اتفقوا على كسر الجيم الثانية من يجرجر .

«في بطنه نار جهنم» وقع للأكثر بنصب نار عَلَى أن الجرجرة بمعنى الصب أو التجرع، فيكون «نار» نصب على المفعولية، والفاعل الشارب؛ أي يصب أو يتجرع، وجاء الرفع على أن الجرجرة هي التي تصوت في البطن، قال النووي: النصب أشهر ويؤيده رواية عثمان بن مرة عند مسلم بلفظ: «فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم»[٤].

فالذي يشرب في آنية الذهب والفضة يعاقب بتجرع وجرجرة النار في بطنه ، فصوت شرب الإنسان الماء في هذه الآنية في دار الدنيا يناسبه جرجرة النار يوم القيامة ، جزاءً وفاقًا .

قال الغزالي : كل من اتخذ النقد آنية فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالًا ممن كنزه ، فإنه كمن سخر الحاكم في نحو حياكة أو كنس .

قال ابن حجر :

في هذه الأحاديث تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة على كل مكلف ، رجلًا كان أو امرأة ، ولا يلتحق ذلك بالحلي للنساء ؛ لأنه ليس من

---

(١) رواه ابن ماجة عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٩٠ .
(٢) رواه مسلم عن أم سلمة .
(٣) رواه أحمد والشيخان ، والنسائي ، وأبو داود ، وابن ماجة والترمذي عن حذيفة .
(٤) فتح الباري (١٠ / ٩٩ – ١٠٠) .

التزين الذي أبيح لها في شيء ، قال القرطبي وغيره : في الحديث تحريم استعمال أواني الذهب ، والفضة في الأكل والشرب ، ويلحق بهما ما في معناهما مثل التطيب والتكحل وسائر وجوه الاستعمالات ، وبهذا قال الجمهور .

واختلف في اتخاذ الأواني دون استعمالها ، والأشهر المنع وهو قول الجمهور[١].

٣٥ - سماع الغناء والمعازف

قال ﷺ: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة. فيقولوا: ارجع إلينا غدا، فيُبَيِّتهم الله تعالى، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٢].

يقول ابن القيم بعد ذكره لمستحلي الحرام بالحيلة ، وعقابهم بجنس عقوبات أمثالهم من العصاة : المسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولابد ، وهو في طائفتين : علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله ، الذين قلبوا دين الله وشرعه ، فقلب الله تعالى صورهم ، كما قلبوا دينه ، والمجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم . ومن لم يمسخ منهم في الدنيا مُسخ في قبره ، أو يوم القيامة ، وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة[٣] .

وقال المناوي :

قال ابن القيم : إنما مسخوا قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن ، والظاهر مرتبط به أتم ارتباط ، وعقوبات الرب جارية على وفق حكمته وعدله[٤] .

---

(١) فتح الباري (١٠ / ١٠٠) .

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم ، ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعاليق ، والحديث صحيح متصل عند غيره كأبي بكر الإسماعيلي . والحديث صححه الحافظ وجمهور المحدثين كابن القيم وغيره ، ولا عبرة ولا التفات إلى تضعيف ابن حزم لهذا الحديث ، فإن البخاري لقي هشام بن عمار وسمع منه ، والبخاري أبعد خلق الله من التدليس .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) فيض القدير (٥ / ٣٩٧) .

يقول ابن القيم رحمه الله :

الغناء يهيج النفوس إلى شهوات الغي ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومَليح ، فهو والخمر رضيعا لبان وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفه، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يفسخ ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ ، وهو جاسوس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل في مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويَدُبُّ إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة ، والرقاعة ، والرعونة ، والحماقة ، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته ، وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه . فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الذِّباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا ... على طيب السماع إلى الصباحِ
ودارت بيننا كأس الأغاني ... فأسكرت النفوس بغير راحِ
فلم تر فيهم إلا نشاوى ... سرورًا ، والسرور هناك صاحي
إذا نادى أخو اللذات فيه ... أجاب اللهو: حي على السماحِ
ولم نملك سوى المهجات شيئًا ... أرقناها لألحاظ الملاحِ

فلعَمْرُ الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حُرّ أصبح به عبدا للصبيان ، والصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارق والحشايا ، وكم من

معافى تعرّض له فأمسى ، وقد حلّت به أنواع البلايا .

فسـل ذا خبـرة يُنبيك عنـه   لتعلم كم خبايـا في الزوايـا
وحاذرْ إن شُغفت به سهامًا   مُـرَيّشة بأهـداب المنـايـا
إذا ما خالطتْ قلبًا كئيبًا   تمـزق بين أطبـاق الرزايـا
ويصبح بعد أن قد كان حرًّا   عفيف الفرج ، عبدًا للصبايا
ويُعطى مَنْ به يُغنى غنـاء   وذلك منه من شر العطايا

٣٦ - التَّشبُّه بالكافرين

قال رسول الله ﷺ : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »(١) .

قال المناوي :

أي حكمه كحكمهم ، وذلك لأن كل معصية من المعاصي ميراث أمة من الأمم التي أهلكها الله ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب ، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود ، فكل من لبس من هؤلاء شيئًا فهو منهم وهكذا(٢) .

قال الذهبي :

قد أوجب الله عليك أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصححه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ، وقال المناوي : قال الهيثمي : فيه عبد الرحمن بن ثابت عن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم ، وضعّفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وذكره البخاري في الصحيح في الجهاد تعليقًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٢٨ ، والإرواء ١٢٥٦ ، وحجاب المرأة ١٠٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٤) .

ضالون »[١]، فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم ، وهم حطب جهنم .

ولو قيل : تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت !! وأنت تشبه بأقلف عابد صليب ، فأين يُذهب بك إن فعلت ذلك إلّا إلى مقت الله وسخطه إن لم يغفر الله لك ، إن علمت أن نبيك محمدًا ﷺ كان يحض على مخالفة أهل الكتاب في كل ما اختصوا به .

حتى إن الشيب الذي هو نور الإسلام ، قال فيه رسول الله ﷺ : « من شاب شيبة في الإسلام ، كانت له نورًا يوم القيامة»[٢]. قد أمرنا نبينا بالخضاب؛ لأجل مخالفتهم فقال ﷺ : « إن اليهود لا يخضبون فخالفوهم »[٣] . ففرض علينا مخالفة ما اختصوا به في صور كثيرة .

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – أنه قال : « من صنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم ، حتى يموت وهو كذلك ، ولم يتب ، حشر معهم يوم القيامة » . رواه عوف عن المغيرة عن عبد الله[٤] .

وقال حذيفة – رضي الله عنه – : من تشبه بقوم فهو منهم ، ولا يشبه الزي الزيّ حتى يشبه الخُلقُ الخُلق .

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – : لا يشبه الزي الزي حتى تشبه القلوب القلوب[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد، وابن حبان، وفي سنده عباد بن حبيش، لم يرو عنه إلا راوٍ واحد ووثقه ابن حبان! وقال الحافظ: مقبول، وللحديث شواهد عدة موقوفة ومرفوعة، أوردها السيوطي في الدر المنثور فالحديث حسن. انظر التعليق ص٢١ على رسالة: تشبه الخسيس بأهل الخميس. ورواه الترمذي بلفظ «ضلال» عن عدي بن حاتم وهو صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي ، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٣ / ٢٤٨) .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٣٤/٩)، وصحح إسناده ابن تيمية في الاقتضاء (٤٥٧/١).

(٥) تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين للحافظ الذهبي تحقيق : علي حسن علي عبد الحميد طبع دار عمار .

قال ﷺ : «لتركبن سُنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتموه»[1].

٣٧ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله : إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم »[2] .

وقال ﷺ : « إذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »[3] .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[4] .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه »[5] .

وقال رسول الله ﷺ : «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[6].

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة،

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٤٣ .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٤ .

(٣) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٢.

(٤) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٠ .

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن حذيفة .

وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[١]. والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب »[٢] .

هؤلاء الذين تركوا الأمر بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ؛ مخافة الناس وعقاب الطغاة ، يبتليهم الله بعقاب فالله أحق أن يخشوه ، والجزاء من جنس العمل .

إلا لو كان الأمر فوق طاقته ، وقدرته ، بحيث يعرض نفسه ودينه وعرضه وماله للفتن .

قال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه: يتعرض للبلاء لما لا يطيق»[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقَّن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتُك وفَرقت من الناس »[٤] .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه ، وأُهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وعن ابن عباس وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وابن حبان عن جرير وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٦٢٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٧٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد، ورواه الحميدي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨١٤ ، والصحيحة رقم ٩٢٦ .

إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهواتِ استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة إما متكفلًا بعملها ، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الدائرة ، ناهضًا بأعبائها ، ومتشمرًا في إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها[١] .

الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر عليهم أن يمضوا في هذا الطريق ، ويحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع ، وزادهم هو الإيمان ، وسندهم هو الله ، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار ![٢] .

إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة وسمة لهذه الأمة ، وإن درست هذه الدعوة ، فقد حلّ عليها غضب ربها وعرّضت نفسها لانتقام العزيز الجبار فما استحق بنو إسرائيل اللعن إلا بتركهم النهي عن المنكر ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ [المائدة : ٧٩] .

وبيّن الله أن أحبارهم أثموا بتركهم النهي عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وبيّن أنه أهلك القرون إلا قليلًا منهم كانوا ينهون عن الفساد ، فقال تعالى :

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢ / ٣٣٣) ، دار الريان للتراث .

(٢) الظلال (١ / ٤٤٨) .

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ [هود: ١١٦] .

سئل حذيفة – رضي الله عنه – عن ميت الأحياء ، فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ، ولا بلسانه ، ولا بقلبه .

وقد كان سفيان إذا رأى المنكر ولم يغيره بال الدم .

وعند فساد الزمان وعدم الصبر على الأذى والفتنة في العرض والدين ، فليقدر الإنسان على نفسه فيقوم بها ، وينكر أحوال الغير بلسانه ، وبقلبه فإن البحر إذا انبثق فمن يقدر أن يسكره . فإذا لم يصل الأمر إلى هذا فلا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلا فليسمع كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا ؟.

يقول الإمام القدوة الزاهد العابد القوّال بالحق ، الأمّار بالعُرْف العمري أبو عبد الرحمن : إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه ، ولا تأمر ، ولا تنهى خوفًا من المخلوق .

من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نُزِعت منه الهيبة، فلو أمر ولده، لاستخف به[1].

يرحم الله العمري الذي قال فيه مصعب الزبيري : « ما أدركت بالمدينة رجلًا أهيب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فُردّ من الكوفة ولم يصل إليه[1].

عن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمري ، فوعظه ، فبكى ، وغُشي عليه .

قال العمري رحمه الله : قال لي موسى بن عيسى : ينهى إلى أمير المؤمنين أنك تشتمه وتدعو عليه ، فبم استجزت هذا ؟ قلت : أما شتمه ، فوالله لهو أكرم عليّ من نفسي ، لقرابته من رسول الله ﷺ ، وأما الدعاء عليه ، فوالله ما قلت : اللهم ، إنه قد أصبح عبئًا ثقيلًا على أكتافنا ، فلا تطيقه أبداننا ، وقذًى في جفوننا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٨) .

فلا تطرف عليه جفوننا ، وشجًى في أفواهنا لا تُسيغه حلوقنا ، فاكفنا مؤنته ، وفرِّق بيننا وبينه ، ولكن قلت : اللهم إن كان تسمى الرشيد ليرشد ، فارشده ، أو لغير ذلك فراجع به ، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مؤمن كفًا ، وله بنبيك ﷺ قرابة ورحم ، فقربه من كل خير ، وباعده من كل سوء ، وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا. فقال موسى: رحمك أبا عبد الرحمن، كذاك لعمري الظن بك[١] .

٣٨ - نقص المكيال والميزان

قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمس ، ما نقض قوم العهد[٢] إلا سُلِّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال والميزان إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين[٣]، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر »[٤] .

وفي الحديث : « ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة[٥]، وجور[٦] السلطان عليهم » .

فمن طفف فله الويل ، ومن طفف الميزان عوقب بجور الحاكم والسلطان ، وأخذوا بالجدب والقحط ، ولا يغنيهم من شيء التطفيف ، والجزاء من جنس العمل .

٣٩ - أكل مال اليتيم

قال تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾ [النساء : ٩-١٠] .

قال ابن كثير :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٨) .
(٢) عهد الله وعهد رسوله ﷺ .
(٣) مفردها سَنَة . وهي الجدب والقحط .
(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٣٥ .
(٥) ضيق النفقة .
(٦) ظلمة .

كما تحب أن تُعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم .

والجزاء من جنس العمل .

ثم يقول عن أكل مال اليتيم الذي هو أحد السبع الموبقات :

ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه نارًا ، أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة[١].

والجزاء من جنس العمل .

٤٠ - ترك الحكم بما أنزل الله

مرّ في الحديث : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر » .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا** ﴾ [طه : ١٢٤] .

ومرّ أيضًا في الحديث : « ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا[٢]؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم » جزاءً وفاقًا .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « حَدٌّ يُعْمل في الأرض ؛ خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا »[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٤٩-٥٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٩٤) .

(٢) أي يطلبوا الخير والسعادة باتباعهم ما أنزل الله .

(٣) حسن : رواه النسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٢٥ .

والحكم بغير ما أنزل الله كذب وزور ، قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

والحكم بغير ما أنزل الله افتراء على الله ، قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالًا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ [يونس : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾ [النحل : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ [الزخرف : ٣٦-٣٩] .

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قِطع من الليل مظلمُ

وقال آخر :

مثل النهار يزيد أبصار الورى نورًا ويعمي أعين الخفاش

إن البعد عن القرآن وحكمه انحطاط ، فالحكم بالقرآن واتباعه شرف وعلو : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

إن الذين جهلوا عمومية الإسلام وشموله من صبيان العلمانية ، وتلطخوا بوحل الغربْ ، إن طفوا فسماؤهم أقدام الغرب الكريهة الكارهة ، وإن غاصوا فمع الديدان والحشرات ، عليهم أن يقُوِّموا من جديد درجة انتمائهم إلى الإسلام العزيز الرفيع .

إذا أنت غُمّت عليك السماء وضلت حواسك عن صبحها

فعشْ دودة في ظلام القبور تغوص وتسبح في قيحها

ومن أعرض عن القرآن وحكمه فشا الفقر في دولته ، وجعل الله بأسهم بينهم شديدًا ، جزاءً وفاقًا ، فحكم الله أمن ، وحكم الله سلام ﴿ **أفغير دين الله**

يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا .. ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

والحكم بما أنزل الله عبودية لله وإيمان به ، ومن أعرض عنه عوقب بنقيض قوله : ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ [النحل : ٩٧] ونقيض قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

٤١ – التخلف عن الغزو

قال تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب ، الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ ، فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا بل كان الله بما تعملون خبيرًا بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قومًا بورًا** ﴾ [الفتح : ١١-١٢] .

هؤلاء لم يكن تخلفهم تخلف نفاق كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله ، وإنما تخلف جبن وهلع ، وكانوا يقولون : إن الرسول ﷺ وأصحابه أكلة رأس ، واعتقدوا أنهم سيقتلون ، وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبرًا ؛ فعاد البوار عليهم ، وصاروا هلكى فاسدين إذ حرموا من مصاحبة رسول الله في الحديبية ونعيم القرب منه .

فماذا كان جزاؤهم وهل كان من جنس عملهم ؟!! .

قال تعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلًا** ﴾ [الفتح : ١٥] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله

ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ؛ فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا[1] .

أما القول ، بأن هذا التخلف تخلف نفاق ، وما ذهب إليه ابن زيد في قوله : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ قال : هو قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨٣] فيه نظر ، لأن هذه الآية التي في « براءة » نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن صلح الحديبية ، وبدليل أن الله قال في الآيات التي بعد ذلك ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ الآية [الفتح : ١٦] فلو كانوا منافقين لما دعاهم للخروج .

٤٢ - غش المسلمين

قال رسول الله ﷺ : « من غشَّ فليس منا »[2] .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا »[3] .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار »[4]

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣١٩-٣٢٠) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٢.

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه في سننه عن أبي الحمراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٣ .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٤ .

ليس منا ؛ أي ليست أخلاقه من أخلاقنا .

وذهب الذهبي إلى أن الغش والمكر والخداع من الكبائر .

قال الإمام أحمدُ : حَدَّثَنا بَهْزُ حدثنا حَمَّادُ بنُ سلَمَةَ أخبرنا إسحاقُ بن عبد الله عن أبي صالح عن أبي هُريرةَ ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رَجُلًا حَمَلَ مَعَهُ خَمْرًا في سَفِينَةٍ يَبِيعُهُ ومَعَهُ قِرْدٌ » .

قالَ : « فَكَانَ الرَّجُلُ إذا بَاعَ الخَمْرَ شَابَهُ بِالْمَاءِ ثُمَّ بَاعَهُ » .

قَالَ : « فَأَخَذَ القِرْدُ الكِيسَ ، فَصَعِدَ بِهِ فَوْقَ الدَّقَل » .

قَالَ : « فَجَعَل يَطْرَحُ دِينارًا في البَحْرِ ودِينارًا في السَّفِينَة حَتَّى قَسَمَهُ »[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٦/٢) ، ومن طريقه النقاش في فنون العجائب (رقم ٧٩) ، وإسناده صحيح .

بَهْز : هو بَهْز بن أسد العَمِيّ .

وإسحاق بن عبد الله : هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة . وأخرجه أيضًا (٣٣٥/٢) ، ومن طريقه النقاش (٧٨) عن سليمان بن حرب ، و(٤٠٧/٢) عن عفان ؛ كلاهما عن حماد بن سلمة به .

وأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (١٠٤/٢-١٠٥) ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٨/٢) ؛ من طريق أبي حرة [واصل بن عبد الرحمن] عن الحسن عن أبي هريرة به .

وأبو حرة صدوق عابد يدلِّس ، وقد عنعن ، وروايته عن الحسن ضعيفة ؛ كما قال ابن معين.

وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٨٣) للبيهقي ، وقال : لا أعلم في رواته مجروحًا ، وروي عن الحسن مرسلًا .

التفسير :

- **شَابَهُ** : أي : خلطه ومَزَجه .

- **الدَّقَلُ** : بالتحريك ؛ قال ابن الأثير : خشبةٌ يمدُّ عليها شراع السفينة ، وتسميها =

قال ابن الجوزي .

كـان لبّان يخلط اللبن بالمـاء ، **فجاء سيل فأهلك الغنـم ، فجعل يبكي ويقول** : اجتمعت القطرات فصارت سيلًا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوكتا وفوك نفخ[1] .

فيا من معاصيه أكثر من أن تحصى ، ويا من رضي أن يطرد ويقصى ، يا دائم الزلل وكم ينهى ويوصى ، يا جهولًا بقدرهم ومثلهم لا يعصى .

ابك على قسوتك ، واندم على غفلتك ، وتذكر ظلمة حفرتك ، ويا دائم المعاصي خف من غب معصيتك ، ويا سيء الأعمال نح على خطيئتك ، نُح نَوْحَ نُوح ، تحيا حياة يحيى ، مجلسنا مأتم للذنوب ، فابكوا فقد حلّ منا البكا ، ويوم القيامة ميعادنا لكشف الستور وهتك الغطا .

إذا ما قال لـي ربـي ... أمـا استحييـت تعصينـي
وتخفي الذنب من خلقي ... وبـالعصيـان تـأتينـي
فمـا قولـي لـه لمـّا ... يعـاتبنـي ويقـصينـي

ويقول آخر :

يا مَنْ تمتـع بالدنيـا وزينتهـا ... ولا تنـام عـن اللـذات عينـاهُ
أفنيت عمـرك فيما لسـت تدركه ... تقـول لله ماذا حيـن تلقـاهُ

* * *

= البحريّة الصّارى .

الفوائد والعبر :

– **منها** : إثبات ذكاء بعض الأصناف من الحيوان ، ومنها هذا المعروف بمحاكاته للإنسان ؛ وتقليده له في أفعاله وسلوكه .

(١) اليواقيت الجوزية لابن الجوزي ص٦٨ تحقيق السيد عبد المقصود طبع مكتبة السنة .